



فاطمة الزهراء والفاطميون

عباس محمود العقاد

طبعة جديدة منقحة



اسم الكتاب: ضائقة الزمراء والقاطميون
المؤلف: عباس محمود العقاد
إشراف عام: داليا مصطفى إبراهيم
تاريخ النشر: الطبعة الخامسة - سبتمبر 2006 م
رقم الإيداع: 16083 / 2003
التقديم الدولي: ISBN 977-14-2413-0

الإدارة العامة للنشر: 21 بن أحمد هاربي - المهندسين - الجيزة
ت: 023466434 - 023472884 فاكس: 023462576 ص ب 21 إمارة
البريد الإلكتروني لإدارة العامة للنشر: Publishing@nahdetmiser.com

المطابع: 11 المنطقة الصناعية الرابعة - مدينة المناس من أكتوبر
ت: 02330287 - 02330288 - 02330289 - 02330290 فاكس: 02330291
البريد الإلكتروني للمطابع: Press@nahdetmiser.com

مركز التوزيع الرئيسي: 14 بن كامل صدقي - القجالة -
القاهرة - ص. ب. 94 القجالة - القاهرة
ت: 0239419823 - 0239418495 - فاكس: 0239403395

مركز خدمة العملاء: الرقم المجاني: 0800222622
البريد الإلكتروني لإدارة البيع: Sales@nahdetmiser.com

مركز التوزيع بالإسكندرية: 406 طريق الحرية (ورشدي)
ت: 035462090
مركز التوزيع بالمقصورة: 47 شارع عبد السلام - عارف
ت: 0507259675

موقع الشركة على الإنترنت: www.nahdetmiser.com
موقع البيع على الإنترنت: www.enahda.com



أسسها أحمد محمد إبراهيم سنة 1938

احصل على أي من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب/CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع www.enahda.com

جميع الحقوق محفوظة © لشركة نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع
لا يجوز طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي صريح من الناشر

تمهيد

ترد الإشارة إلى الوراثة في مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعول عليها في مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار. ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية.

وأراني أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة في كتابة هذه الصفحات وكتابة كثير من الصفحات في الموضوعات الإسلامية وما اتصل منها بالعقيدة^(١) النبوية على التخصيص. ومن أمثالنا في الصعيد الأعلى ما معناه أن البيت إذا احتاج إلى الخبر فهو أولى به من الجامع.

ولدت لأبوين من أهل السنة، أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة. وفتحت عيني على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويثيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة. وربما زارتنا أحد أحوالى في تلك الساعات المبكرة ذاهباً إلى المسجد القريب أو عائداً منه إلى داره.

وفتحت أذنى كما فتحت عيني على عبارات الحب الشديد للنبي عليه السلام وآله، فمولد النبي حفلة سنوية في البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها؛ لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها. وأسماء النبي وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار؛ لأنها أسماء إخوانى أجمعين: محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة، واسمى أنا منسوب إلى عم النبي لا إلى الأمير الأسبق؛ عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى؛ لأننى ولدت قبل ولايته، وأبيت في المدرسة أن ألقب بلقب «حلمى» جرياً على ما تعودته المدارس في تلك الحقبة، وبقيت منسوبة إلى اسم «محمود» وهو كذلك من أسماء النبي، ولم يكن لأبى إخوة، وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم رقيب، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه التسمية الشريفة.

(١) العقيدة بكسر الحين: تمل الرجل وأقرهاؤه الأئمة.

ورثت هذا الحب الشديد للنبي وآله عليهم سلام الله ورضوانه، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب من أهل السنة؛ لأنهم يديتونه بدستور السنة النبوية، ولكنه كان في بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالأدب المذهبية، فاستفدت منه كثيراً في دراسة تاريخ الإسلام.

استفدت منه أمتي كنت شديد التريث في سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التي كانت تقوم على إنكار حق، أو إنكار فضل، أو إنكار نسب، أو إنكار ما من ضروب الإنكار التي تمس تواريخ أهل البيت النبوي من بعيد أو قريب.. ولم أستفد منه بحمد الله كراهية أحد ذي حق أو ذي فضل؛ لأن قداسة العظمة الإنسانية تحجب عندي جميع هذه الصغائر التي تمس تواريخ العظماء أجمعين، وولعي بدراسة تواريخ العظماء من طفولتي الباكرة عصمتني بحمد الله من غوائل^(١) هذا الصغار^(٢).

ومن أثر هذه الوراثة في ذهني أنني لم أصدق ما كان في حكم الواقع المقرر عن سياسة الإمام، وأنه لم يكن له في السياسة نصيب، فيحثتها بحث الإشاعات ولم أعطيها من يادئ الرأي شأنا أكبر من الإشاعات التي تسري على الأفواه بغير دليل، أو بجينها الدليل المختلف من صنع أصحاب المنافع والمآرب في سياسة الحاكم الغالب، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين..

* * *

ومن أثر هذه الوراثة في ذهني أنني قارنت سير العظماء الإسلاميين و«النبويين» لأرضي ذهني، ولم يقنعني أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهني شواهدا وآياتها، فعظماء الإسلام عندي أعلام إنسانية باذخة تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها المسلم وغير المسلم، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام.

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام في حياة الزهراء، فإنها - سلام الله عليها - قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد، أو تكتب لها ترجمة لأنها

(١) غوائل: جمع غائلة وهي الداهية والشر المهلك.

(٢) الصغار: بفتح الصاد: الدل والضيم.

زوج علي، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنتيهما الشهداء، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هي فاطمة، ولأنها هي مصدر من مصادر القوة التاريخية التي نتابعت آثارها في دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير.

* * *

وهذا الذي قصدت إليه بكتابة هذه السيرة، وبالبحت عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين إلى فاطمة، وعلى قلة الأخبار التي حفظت عن شخص فاطمة - عليها السلام - أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكنتني أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها.

ونعود إلى الوراة فنقول إن أول ما نضيفه إلى بيان قوة اليقين، أو بيان القوة الإيمانية في نفس الزهراء، أنها ورثتها من أم وأب، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث، ولكنه إذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت أصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هي، وفيما توارثه الأعقاب عن بعدها، وما أخذته من ميراث.

* * *



القسم الأول

فاطمة الزهراء

- أم الزهراء ..
- نشأتها ..
- زواجها ..
- بلاغتها ..
- في الحياة العامة ..
- وفاتها ..
- شخصية الزهراء ..
- الذرية الفاطمية ..



أم الزهراء



حفظ التاريخ لنا قليلاً من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء - رضي الله عنهما، ولكن هذا القليل كافٍ للتعريف بها، وبما يمكن أن تورثه بتيها من الخلائق والسجايا؛ لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدنا الإفاضة في الأخبار إلا في التفصيل.

ومن جملة الأخبار القليلة التي حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة، وأنها - رضي الله عنها - كانت غنية اليد غنية النفس بأكرم العواطف الأنثوية: عاطفة المحبة الزوجية، وعاطفة الأمومة، وعاطفة الإيمان.

كانت تسمى في الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش؛ لأنها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة، وأهلها جميعاً لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم إلا كان علماً في الحكمة والدراية أو في الشجاعة والشمم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام.

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر في الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهي نسبه إلى لؤي بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق في النيل والسيادة، فهي فاطمة بنت هالة التي ينتهي نسبها كذلك إلى لؤي بن غالب، وهالة بنت قلابة التي ينتهي نسبها إلى ذلك الجد الأعلى. وقد اجتمع لها مع النيل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم، فكانت قافلتها إلى الشام تغزل قوافل قريش أجمعين في كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعه بالنسبة إلى زوجة نبي، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مقطوعة على التدين وراثته وتربيته.

فأبوها خويلد هو الذي تارع تبعاً الآخر حين أراد أن يحتل الركن الأسود معه إلى اليمن، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك^(١) من مناسك دينه،

(١) المنسك الموضع يأتيه الإنسان ويتودد إليه في خير كان أو غيره، ومناسك الحج عباداته.

وقال السهيلي في الروض الأنف: «إن تبعاً رُوِّع في منامه ترويعاً شديداً حتى ترك ذلك وانصرف عنه» فلا يبعد أن روعة خويلد ومراه وهو ينذر العاهل بالغضب الإلهي إذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات في منامه ما أرهبه وثناه عن عمله.

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذي رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبي عليه السلام عند مفاجأته بالرحى ما أزعجها، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصراني واليهود، ولم تكن للكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها؛ إذ لم يكن في مكة مسيحيون يرجعون بأمرهم إلى كاهن أو كنيسة، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك في عبادة الأصنام وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة. ويُنسب إليه شعر كان يقوله في الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبي الصلت، ويروى كتاب السيرة أنه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له، وقال لها: «إنه السقير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه».

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة، لا يعنيها أن نستقصيها؛ لأن المهم في الأمر هو وجود هذا الشغف بدارسة الأديان بين بني عم السيدة الأقربين، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مقامك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التقدين التي ورثتها الأسرة، من كان منهم على الجاهلية، ومن تحول عنها إلى النصرانية. ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية؛ لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها بل سألت غيره ممن كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان..

وقد روى عنها كلام قالته للنبي عليه السلام حين فاجأه الوحي فعاد إليها، وقال لها: «لقد خشيت على نفسي» فكان كلامها - الذي أرادت أن تسري به عنه وتنبأت به جنازه - آية على العلم بلباب الدين علماً يُستكثر على الناشئين في أديان الجاهلية، فإن الدين لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسحرا، ولكنها أدركت

من حقيقة الدير ما لا يدركه عاكة قوعها فعلمت انه فصيلة وأن اسبى الصير أن
يُذب له هو الرجل اسى اتسم بالفصيلة، وقالت للمنى وقد آمنت أنه وحى وليس
بعارض من عوارض الحدة «كلا والله ما يخرمك الله أدًا، إنك لتصل الرحم،
وتحمل الكل^(١)، وتكسب المعدوم، وتقري الصيف، وتعين على نوائب الحق وتصديق
الحديث، وتؤدي الأمانة»

علامات النبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين، ولولا أنها عرفت من بُناء
عمومتها من كس يفهم النبوة هذا الفهم لم كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة
وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم

وهى على هذا طبيعة عميرة، وليس طبيعة سماعة إلى السماع والتقليد مما
نقل عنها بها طلبت إلى المنى عليه لسلام أن يخبرها إذا جاءه خبرين فلما
أخبرها قالت له «قم فاحلس على مخدئ اليسرى» فعرض، فقال «هل تراه؟» قال
«نعم» قال «فتحول إلى مخدئ اليمين» وسألت «هل تراه؟» قال «نعم» فألقب
خمارها^(٢) وسأله، فقال «الآن لا أراه» قالت «يا بن العم أثبت وأبشر، فإنه ملك
وما هو بشيطان».

وهذا الاختبار عذبة ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تعتحن به حقيقة
الرحى ولا غربة فيه عند «معلم وعند غير لمسلم فى العصر الحاضر فإن
البديهة لا تستغنى بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الأنثى فى وقت واحد، ولا سيما
بعد الحوار وإعادة لسؤال مرة بعد مرة، فلا موجب إذن لشك لمتشككين من
المتحدثين فى صحة هذه الأحاديث

وقد رزقت هذه اسيدة الدارة صباحة الوحى مع ما رزقته من الحق الجميل
والحسب الأثنى^(٣) وأمال الحريين، وصدق من قال إن السعادة لا تتم فإن هذه
السيدة التى تم لها عذبة ما تتمم امرأة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها
الروحانية فإنها تروحت فى صباها يرجل من هدمت^(٤) مكة هو أبوهالة بن رزارة

(١) الكل الثقيل لا خير فيه.

(٢) الخمار بكسر الخاء التصيف وهو ما تغطى به المرأة رأسها

(٣) الأثنى القديم المؤصل

(٤) هدمت الهامة الرأس من كل شيء

نمات ولها منه ولد صغير سُمي باسم هند (لعله دفعاً لأذى الحسد) وهو الذي تربى مع السيدة فاطمة وقتل في جيش الإمام في وقعة الجمل على أرحح لأقوان، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبي رواه سبطه انحسن عليهما صلوات الله

ثم بنى بها عتيق بن عاتق بن عبد الله المخرومي واختلفوا في أي زوجها كان الأول ولكنه على كل حال روج به يكتسب له الدوم وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها في حياتها الرجل الذي أصبح بفصله علماً من أعلام النساء في التاريخ ولا شيء أس على رجاحة لبها من أباتها في اختيار زوجها مع تهافت احطاب عليها ورجوع الأمر إليها فيما تختار

أب كيف اتصل بنبي عليه السلام بأعمل في تجارتها فتكاد الأقوال تنفق على أنه كان بمشورة من غده أبي طالب، وإن أبي طالب قد له في سنة من استنيس. «يا ابن أخي أبا ربح لا حال لي وقد اشتد علينا الزمان، وهذه غير قومك قد حصر خروجها إلى الشام وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في غيرها فلو حثتها معرضت نفسك عليها لأسرعت إيتي» وقد تردد النبي في معاتحتها بهذا الطلب فذهب إليها يو طالب، فأجابه على رضى وكرامة، ومالت له لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأحبائك، فكيف وقد سألت لقريب حبيب»

وهو سافر النبي إلى الشام وياع واشترى وبيع لها أصعاف ما كانت تبيع في كل عام، وعجبها منه أنه حين عاد من السفر وكل إلى علامها ميسرة - الذي كان بصحبته - أن يسبقه يبشرف بعودة العافلة ووفرة كسبه، فأكبرت معه مروتته وأمانته وحذقه، وأحبته وودد لو يخطبها مع الخطاب، وعرضت له بذلك في حديث أقرب إلى التلميح منه إلى التصريح

وأحرم النبي حياء وأحمت في عن التصريح، ثم أوعزت إلى صديقة لها هي نفيسة بنت منية أن تشجعه على الخطبة فسألته نفيسة ذات يوم «ما يمنعك أن تتزوج؟» قال «قلة المال» قالت «هإن كفيته» ودعيت إلى اسار والجمال والبقاءة؟ قال «ومن تكون؟» قالت «خديجة» قال «فادهي فاططبيها»

وروى الزهري صاحب أقدم السير أن «رسول الله ﷺ قال شريكه الذي كان يتاجر معه في مال خديجة فلم يلتحدث عند خديجة وكانت تكرمهما

(١) أمانتها الحزم، والوفق، والنوده

ونحفظهم، فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستبشرة - هي الكاهنة - فقالت له: جئت خاطباً يا محمد، فقال: «كلا» فقالت: ولم؟ فوائت ما هي عريش امرأة - وإن كانت خديجة - إلا تراك كفوا لها.»

وأسنه لأشياء بأن يكون بين الروايات المتعددة أن النبي عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عريش قوم لعزيرة قوم، وقال وهو يفتح عمها في الأمر: «إن محمداً ممن لا يوارى به عسى من عريش إلا ربح به شرها وببلا وعصلا وعفلا، وإن كان في حال فلا يلبس إمام ظن زائر وعارية مسترجعة، وله في خديجة بنت خويلد رغبة وبها فيه مثل ذلك» ففعل عمها عمرو، أو بن عمها ورقه بن نوفل في رواية أخرى «هو أنفص الذي لا يقدح أنفه»^١ وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله، ولم يتزوج عليها في حياتها، إلى أن قارب الخمسين

ومن خديجة ولد للنبي جميع أبنائه ما عدا إبراهيم ابنه من سارية العبطية، وهم القاسم، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال.

وكان النبي عليه السلام عند رواجه بالسيدة خديجة في نحو الخامسة والعشرين من عمره، أما السيدة خديجة عمر كتب السيرة من يقول إنها كانت في الأربعين أو الخامسة والأربعين، ومنهم ابن عباس يقول «إنها كانت في الثامنة والعشرين ولم تحاوره» وأخرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها، ولأن المرأة في بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها للكبر لا تقتصرى للدواح بعد الأربعين ولا يعهد في أغلب الأعم أن تد بعدها سبعة أولاد، عدا من جاء في بعض الروايات أنهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم

وقد يرجح تدوير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج في نحو الخامسة عشرة أو قبلها، لجمالها ومالها وعراغة بيتها وطمأنينة أهلها، فلا تنجاور الخامسة والعشرين بعد رواجين لم يكتب لهما طول لأمد، وإن كب لا نعرف على

١) مستبشرة استبشاً الوجه، بحث عنها وتطليها وشبعها
٢) يقدح أنفه فزع للرجل صناعية، معه وكفه والنرس كبحه

استحقيقكم من السنين دام رواجها من أبي هاله ومن عتيق من عائد، قص الكلام
عن دريتها منيما يبدو أن أمانها معهم لم ترد على بصعته أعوام
﴿وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم﴾

وأمامها ألف مصداق على هذه لاية في سيره الرسول لعظيم اسي تمرلت عليه
تلك الحكمة الإلهية.

لقد تأخرت به قصة المال فلم يتزوج قبل العشرين، خلاها لما جرى عليه العرف
بين علية نعوم، وهو من تلك لعبة في الدوبة^(١) العلما
ولقد عزت الهاءة الزوجية على السيدة العيبة الوصينة^(٢) الدكة، فبأمنت^(٣) في
بحر التلائم

ولو كثر مال محمد لعبه كان يبي قيل العشرين بكريمة معشر بصعته ببضع
ستين، وكان هذا هو الخط السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد
ولو تسرت الهاءة الزوجية لخديجة لعلا كانت في غنى عن يتحر لها
ويؤمن على قواقلها بين الحجار والشام ولكن بها من مالها ومال زوجها عون
في ارحله وانفام وكان هذا هو الخط السعيد في عرف كل إنسان عاقل رشيد
أيهما كان خيرا؟

هذا الذي كان كما كان، أو ذاك الذي كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الخط
الحسن الرشيد^(٤)

لم يمض سنوات على هذه الاصرة^(٥) القدسية التي جمعت بين الزوجين
الكريمين حتى طرأ طارئ لم يدخل لهما في حساب واستحاش الغيب نفس رسوله
فتحجرت لأداء الأمانة انطى التي جاشت بها حو بح الدية مئات السنين

فلم يجد محمد إلى جانيه فتده عريته تفرع ولا تدري ما تصنع، بل وجد إلى
جانيه قلب كريما وروحا عظيما وسكب بهداً عنده جائشة صميره وتطمس إليه
خشية مؤاده، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التي سكن إليها أنها حكمة المس

(١) الدوبة صميره السم المرساة ومن الجبر علاه، ولان نوابه فومه لاعلاه وأشرفهم

(٢) الوصية المسه السطية

(٣) فقيمت المرأة بلا روح بكرا أو بيبا

(٤) الأصرة حبل صمير يشد به أسن الخياء وما عطفك على رخص من فزاة أو معروف.

وحسان الأمومة ولكنه أمان الذي يعرف من شأنه وبشأته أنه ما الرسالة وما
أمانة الحق والفضيلة، وما عاقبه الصبر على «العرواء»^(١) التي تذكّر لها عرائم
وتعيش لها أحلام، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كقولها من
بنى آدم وحواء

وكل ما علم به من سيره خديعة عليها الرصوان حقيق على قلته أن يحجبها
بحق سيده بساء قريش، ولكن هذا العليل الذي عماء لو ذهب كله ولم يبق منه إلا
أيام حضانتها ببشائر أسبوة في طلعتها لصمن لها أن تنبؤاً مقام السيادة بين
بساء العالمين..

وقد بقي محمد يذكر لها تلك الأيام إلى محبهم أيامه، وظل يتفقدتها ويتفقد
مواطر ذكراها أعوام بعد أعوام لقد كان فيها اشعل الشاعر عن أحبيب الأيام
وصعب الأيام وإن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى في التعرف بحقه
من روعة بارقة وأم رءوم، فما من شهادة لإسبابة هي أصدق من دوام الوفاء لها
في قلب إنسان عظيم.

* * *

(١) العرواء (بضم فصح): قرعة الصبي، وبشأته أوزر، وهذته.

نشأتها



إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تخفى عن كلمات فالحديث هو تلك الكلمة الواحدة

درجت في دار أبيها، والدار يومئذ مقبلة على أمر حل لم تتجمع بوادره في غير تلك الدار، وغار حراء.

أمر حل لا تقف جلالته عند حداث الدار، ولا عند أبواب المدينة التي اشتملت عليها، ولا عند حدود الحزيرة العربية بعمارها وقفارها، بل هو الأمر الجلل الذي يطبق العالم بأسره عصوراً وراء عصور، لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التي كانت يومئذ تخلق في صدر واحد، هو صدر أبي الزهراء عليه السلام

ما هذه الصلوات والتسبيحات؟ ما هذه الهيمنة^(١) بين الأنبياء؟ ما هذا الوحي وما هذا القبول^(٢)؟

أكبر الص أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئاً من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه، وهي لم تفتح عينيها على غير هذه البوارج والمقدمات

أكبر الضن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئاً مما كان يحيط بها وهي تدرج في مهدها، ولكن الطفل الذي يحسب هذه المشهد من مألوفاته يفهم بمألوفات لا تتكرر من حوله، ويتخذ له قياساً للآلية والعراة صغيراً بين أقيسة النفوس

وأكبر الضن أنه يست منطوي على نفسه، مستخفاً بما يخف له الناس من حوله متطلياً من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطليون

(١) الهيمنة الصوت الخفي لا يفهم

(٢) القبول: القيام في الصلاة على الرجلين، وإسماعيل بن الكلام فيها

وقد أوشكت الرهراء أن تنشأ نشأة اطفل الوحيد في دار أبيه لأنها لم تجد معها غير خت واحدة ليست من سنّها وغير أخيها هند، وهو أكبر منها ومن أختها ولم يكن من عده الصغولة العريسة أن يلعب الياب لعب الصبيان

وأوشكت عرلة الطعنة لوحيدة أن تكبر معها، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات إخوتها الكبار إلا ما يحزن ويشغى ما سوا صغراً وخلفوا في نفوس الأيوس لوعة كامنة وصبراً مريراً أو تروح من الأخوات لأحياء من نروح وخطب من خطب، ثم لم تلبث الخطبة أن ودت لي أختين لأنهما خطبتا إلى ودي أبي لهب، ثم أصبح أبو لهب عدواً للأبوين ينقشهما ويمقنانه، فاستهت خصة الأخمين الشقيقتين بهذا العداء

حدّ من كل حاد تركن إليه واسطواء على النفس لا يستعربه ولا تحب أن تتبدله، صلاهد في كل هذا حنان أبوس لا كالأباء حنان حاد رصين وبكاد تقول بل حنان صابر حزين، يشمها به، لأب أسى مات أبائوه ولا عراء به من بعدهم غير عبد النسوة أسى تأهب له رمنا وبهص به زمنا ولا يرال معاسي من حملة ما سوء به الحبان ويشمها به الأم التي حاورت الأربعين وبقيت لها في خدرها هذه العنبة الدارجة صغرى نريها، والحنان على الصغرى من الدرية بعد فراغ الدرية كلها بالموت أو بالرحمة حنان بعمر الحق صابر حزين

وقد نعمت الرهراء بهذا الحنان من هلبين كثيرين حنان حري به أن يعلم النوقار ولا يعلم الحصة والموح والابلاق

وتعلمت الرهراء في دار أبيها ما لم تتعلمه طفلة غيرها في مكة آيات من القرآن وعبادات ياباها من حولهم العابدون وغير العابدين.

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يعلمه غيرها من البنات في حاضرة الحرية العربية، فلا يحب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تصمد جراح أبيها في غرور أحد، وأنها كانت تقوم وحده بصبيح بيتها ولا يعينها أحد في أكثر أيامها

ويبدو لنا اسطواء الرهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها، فلم تعرض قط بشيء غير شأنه وشأن بعثها، ولم تتحدث قط في غير ما تسأل عنه أو يلحها إليه حادث لا ملجأ منه، فلا حصول هناك في عمل ولا في مقال

وسواء صح ما جاء في الأنباء عن محادثتها للصدوق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال لمراحة، فالصحيح الذي لا مراحة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبي وسمعتة من علي، وأنها صلت به ووعت أحكام فرائضه، وأنها وعت كل ما وعته بقاة عربية أصيلة العرق والنسب، ورادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات، بمعرفات

لقد نشأت بشأه حد واعتكاف^١ نشأة وقار واكتفاء، وعلمت مع العسرين أنها سيلة شرف لا مازع لها فيه من واحدة من يقات حواء ممن نراه، موثقت بكفاية هذا الشرف الذي لا بدائي، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرعها كأنها في عزلة بين أيمان آدم وحواء

سكنت هذه النفس القوة جثما يصق بقوتها، وقلم ررق الراحة من اجتماع له النفس بقوة والحثمان، الضعيف، فإيهما مريج متعب للنفس والجسم معا، لا قوام له بغير راحة واحدة هي راحة الإيمان، وهذا هو لتوفيق الأكبر في مشاة البرهراء، وإيه نشأت هي مهد الإيمان إذ هو أكرم ما يكون بها بين قوه نفسها وبحول جثمائها.

* * *

(١) اعتكاف اعتكف في المسجد: أقام به، وحبس نفسه فيه



زواجهـا

قال الرافسي في شرح الموهب اللدنية «- إن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبي فقال هشام لعبد الله يا أبا محمد كم بلغت فاطمة من السن؟ قال ثلاثين سنة، فقال الكلبي خمسا وثلاثين فقال هشام اسمع ما يقول وقد عني بهذا الشأن فقال يا أمير المؤمنين سمى عن أمي وول الكلبي عن أمه» ونوافق هذه الرواية روايات متعددة، اتفقت على أن الرضراء ولدت هي سنة يساء الكعبة قبل البعثة المحمدية بمئتين سنة، فأصبح الأقوال بين لأخبار المتصيرية أنها عنيها السلام قد تروجت وهي في نحو الثامنة عشرة

ومن حمته الأخبار يتضح أن انسب عليه السلام كان يبقياها لعلّ رضي الله عنه، فقد خطبها أبو بكر وعمر فربهما وقار لكل منهما أنتظر بها الغصاء، أو قال إنها صغيرة كما جاء في سنن النسائي.

وهي أسد العاية أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأسى رسول الله قال عمر «أب لها يا علي» فقال علي «مالى من شيء لا يرعى رهنها» فروح رسول الله فاطمة فلما بلغ ذلك فاطمة بكّت ثم دخل عليها رسول الله فقال «مالك تبكين يا فاطمة فوالله لقد كحكتك أكثرهم علما وأفضلهم حلما وأوهم سلما»

وهي رواية أن عليا لما سأله النبي «هل عندك من شيء؟» قال «كلا» فقال له «وأين درعك الحطمية؟» أي التي يحطم لسيوف، وكان النبي قد أهدها إياها فباعها وباع شيء غيرها كانت عنده فاحصم له منها أربع مائة درهم

جاء في أنساب الأشراف للبلاذري «فباع بغيرها له ومثاعا فبلغ من ذلك ربحانة وثمانين درهما ويقال أربع مائة درهم، فأمره أن يجعل ثلثها في الطيب وثلثها في المتاع ومثل »

ثم استورد صاحب أنساب إلى رواية أخرى، يرتفع سندها إلى علي نفسه من سمعت عينا عليه السلام يقول، «أردت أن أخطب إلى رسول الله ﷺ فقلت والله ما لي شيء، ثم بكرت صلته وعائنه فخطبها إليه» فقال «وهي عندك من شيء؟» قلت «لا» قال، «هأين درعك التي أعطيتك يوم كذا؟» فقلت هي عندي قال فأعطها إياها»

وعني صفات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب إليه بكر وعمر فاطمة «هي ث با على لست يدحان نفسي لست بكذاب وبك به كان وعد علي بها قبل أن يخطبها وروى عن النبي أنه قال فاطمة «ما ألبت أن أروحك خير أهلي»

وجهرت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم جشوها لبف وبودة من أدم (إساء يعسل فيه) وسقاء ومسخر ومنفعة وفرج ورجاء وحتران.

وعن أنس بن مالك أن النبي قال له اطلق وادع لي أبا بكر وعمر وعثمان وصاحبة والزبير وبعدتهم من الأنصار فإن فاطمة قد فدعوتهم، فلم أخذوا مجالسهم قال ﷺ «الحمد لله المحمود بسعته المعبود بقدرته، لمطاع لسلطانه المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره في رضه وسعائه الذي خلق لحلق بقدرته وفيرهم بحكمه وأعرهم بدنه وأكرمهم بنبيه محمد ﷺ أن الله عز وجل جعل المصاهرة نسباً لا حقاً وأمر مقترباً وحكماً عادلاً وحيراً جامعاً، وشجراً بها لأرحام وأرمها الأدم فقال الله عز وجل وهو الذي خلق من الماء بشر فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً، وأمر الله بحجتي إلى قصابه، وقصوده بحجتي إلى قدره ولكل حين كتاب يحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرني أن أزوجه فاطمة من علي وأشهدكم مني رجلاً فاطمة من علي على أريعمانة مثقال قصبة إن رضي بذلك عني النسبة لقائمة والفريضة الواجبة فجمع شملهما وبارك بهما وطاب نسلهما وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمر الأمة، أقول قولي هذا واستعصر الله مني وبكم»

قال أنس «وكان علي عليه السلام عائباً في حاجة لرسول الله ﷺ قد بعثه منها ثم أمرنا يطبق فيه تمر فوضع بين أيديهم، فقال انتبهوا فبيما نحن كذلك إذ أقبل علي متبسماً إليه رسول الله ﷺ فقال يا علي إن الله أمرني أن أزوجه فاطمة وإني روجتكمها على أريعمانة مثقال قصبة فقال علي رضيته يا رسول الله تم إن عينا خيراً ساجداً شكراً لله فلما رجع راسه قال لرسول ﷺ يارك الله لكم وعليكم وأسعد جسدكم وأخرج منكم الكبير الطيب

قال أنس: «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب»

(١) ألهمت قصرت وأبطلت

(٢) أوشج أزعج الله بين القوم ألف ويخلف

ومن المرحح جداً أن الزهراء قد استشيرت في رواجها على عادة النبي علي
اسلام في ترويح كل بيت من بيته كما جاء في مسند ابن حنبل، فيقول بها
فلان يدرك، حين سكنت أمصى الرواح، وإن نغرت الستر علم أنها تباها، وفي
زوج الزهراء قل لها يا عاطمة إن عبداً يدرك فسكنت، وفي روايات أخرى أنه
وحدوها باكية، هناك حيث قال رسول الله «ما لك تنكبن يا فاطمة» فوالله لقد
انكحتك أكثرهم علماً وأعصمهم حِلماً وأولهم سلماً.

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذي تم فيه الرواح، ولكنهم قالوا إنه كان
بعد الهجرة، وبعد عروبة بدر وأرجح الأقوال كما قدمنا أنها كانت في نحو الثامنة
عشرة ورواها أكبر منها ببضع سنين.

توخينا في اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال
الرواة والمحدثين، فما من خبر من هذه الأخبار وصل إلينا في كتب السيرة على
رواية واحدة، وقد يبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالزمن خمس سنوات
أو أكثر، ويبلغ الفرق في بعض المسائل التي تتعلق بالأقوال والأعمال أن
تتناقض مناقضة القبول والإبلاء والردى والاكثار، فلا محاص من الأخذ
بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال.

ومن نعى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قد تم على المعايلة والموارنة
والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله، وإلى الأخرى أن يصدر ممن أسند إليهم
القول أن نسب إليهم العمل. وإلى الأخبار أن تسويت ربح بينها ما هو أسبه
بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه.

فمن المعقول مثلاً أن يؤثر المبنى عليها بفاطمة وهما ربيبان في بيته واحدة
ومن المعقول أن يؤثر رواجها من علي على مشاركتها في بيت أبي بكر وعمر
بزوجات المشخين. ومن المعقول أن يحدد علي في خطبتها بفقره ولا يخاف
المعقول ولا المؤلف أن يقدم بعد تردد لشعوره بأنه مخصوص بها وأنه ينبغي
عليه أن يقنع بذلك باليقين ويعمر من بعده ما لا بد له من عمه، ولا يخاف
المعقول ولا المؤلف كذلك أن يتأخر الرواح إلى ما بعد الهجرة لأن حياة
لمسلمين في مكة - قبل الهجرة إلى المدينة - لم تكن حياة أمن ولا استقرار، ولم
يكن من السهل أن يهاجر المسلمون بزواجهم إلى بلد بعيد كالحيشة كلما ملكوا

وسائل الهجرة، فمن كان متزوجاً قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له في الزواج، ومن لم يكن فليس أخق به من إرجاء الزواج إلى حين ذلك كله هو المعقور المألوف وهو لأوسط الأمثـل إذا تسارت الأخبار ووحبت الموارنة والقرحيـح

إلا أن التاريخ يكتب للاعتبار، ولا يقصد من الاعتبار به شيء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والساس واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يحوز ولا يحوز وما هنا محل لعبرتين كأهم العبر في كتابه الشارح كتابته هي الأرمدة الغابرة، وكتابته في الزمن الحديث

فأهم العبر التي تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد ذوي الأحكام التاريخية في المسائل الكبرى فلا يربوا حكماً قاصداً في مسألة كبيرة على أرقام اسنير وألغاز الروسا، فـ كان من الأخبار مجمعا عليه أو مقارباً للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الحارمة فيه وما كان ميران الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات، أو فرضاً تقابله مروض، أو رعباً ويوحنا تقابله أرقام وأيام بل أعوام، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجرم والبعير، وبخاصة حين يبنى عليه اتهام أرقصاء لا يقوم في مسائل كل يوم بغير ببة تنفي كل شبهة ويظهر كل محال

أما العبرة في تاريخنا العصري فمرجعها إلى كتابة طائفة من العصرين يزعمون أنهم يطلقون روح العصر على تاريخنا القديم وأهم يصححونه بهذا التطبيق، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يربون يـميرانين وبصرون بعيير، ويختلفون أسباب التشويه والتحريف

أولئك هم صائفة المستشرقين الذين يجمعون بين لاستشراق والتبشير فمن هؤلاء من يطالع في كتب الأدبية التي يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أموراً لا شك هي أنهم من العيوب فلا يحسبها عيوباً، ولا يتأفف منها، بل بعث فكره ويعتتها تحريفاً وتعويها حتى يقبلها ويفرض قبولها على الناس

فإذا طالع كتباً عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين، بل أخذها على البقيص من ذلك بالمسخ والنشويـه وتحويل المحاسن إلى عيوب، أو بالتنقيب في كل مكان عفا يعاب إن لم يجد ما يعيبه في ظاهر السطور والنصوص.

وما من شيء يمسح الدين ويمسح العلم معا كما يمسحها هذا الخلق الدميم، فإن الدين لا يعلم الإنسان شيئا إن لم يعلمه حب الصدق واحتساب القمحل^(١) والافتراء، وإن العلم شر من الجهل إن كان يسوم الإنسان أن يغمص عييه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع فليس هذا جهلا يرول بكشف الحقيقة، ولكنه مرض يعتمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهي مكتوفة لديه، فهو شر من الجهل بلا مرأ وفي تاريخ الزهراء مثال للعبوة التي تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من اجهلاء وأحدهم قد خصص كتاب لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن «يطبق» ذلك العلم العصري المقبوض، فهذا هو منقلب عليه.

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمن في الشرق - كتاب عن الزهراء ليرضى فيه ذلك «العلم العصري» اسقلوب، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب، فإذا العيب هو في الإسفاف، وكم هي الإسفاف من عيوب، بل من دنوب^(٢) ومن تفهاتة وسفاسفة^(٣) أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال، ولم تصدق أن أحد يخطبها بعد تلك السن، ثم يقول إنها لم عرض عليها النبي الزواج من على سكنت هنية ولكنها لم تسكت خجلا بل دهشة من أن يخطبها خاطب، ثم تكلمت فشكت، لأنها تزوج من رجل فقير.

لو كان السند الذي استند إليه هذا «العالم» واضحا ملزما لقننا إنها أمانة العلم، ولا حيلة للعالم في الأمانة العلمية.

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت في الثامنة عشرة من عمرها وتقابله أسناد أخرى تنقصه وترى المؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراه، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى ما لا عيب فيه.

فالمشهور الموانر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين وأن أخواتها تزوجن من ذوي غنى وجاه، كآبي العاص بن الربيع وعثمان بن عفان.

وليس من المؤلف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال وأن نحرمه إحدى إبيات،

(١) القمحل: قمل الشيء. عليه بهيمة وتكليف ومنه تعجل له عدوا

(٢) سفاسفة: السفسافه الروي «من كل شيء»، وما دق من الدواب

والمشهور المتواتر أن السيدة عاتمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية في إبانها، والمسلمون بين مهاجر أو مقبض غير آمن، ولحسن قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين، وهؤلاء المسلمون فئة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقه له بالزواج، فلا حاجة بالمؤلف إلى البحث الطويل ليهتدي إلى السبب الذي يؤخر زواج بنت لمبى إلى الثامنة عشرة، ولو كانت أجمع الحصيلات.

وفي وسعه كذلك أن يتصور أن النبي يخص بها ابن عمه، ويعتظر بها يوم العت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بيته وبين أنه الدين لا يزال على دين الحاهنية فلا هم في ذلك الوقت دووه ولا هم بعداء عنه كل ذلك قريب كان في وسع «العالم المحقق» أن يراه شخص عتيقه، قبل أن يذهب إلى العلة التي اعتلها لتأخير الزواج، فلا يرى له من علة غير فقدان الحال ولكن الأسباب الواضحة القريبة لا يلتفت إليها لأنها لا تعيب، والسبب الخفي البعيد تشوبه غضاضة^(١) فهو الجدير أن يبالغ في الالتفات

وكأنما كان «العالم المحقق» في حاجة إلى جهالة فوق جهالته، فهو يفهم من بكاء لسيدة عاتمة أنه شكية من عمر على بن أبي طالب، ويسد هذا القهم بن رواية البلاذري في أنساب الأشراف بعد زعمه أن عاتمة أبلغت زواجها بعلى فسكت من الدهشة لا من الخجل، وإنما دهشت لأنها لم تكن تصدق أن أحدا يخطبها بعد أن قاديت العشرين

أفمن لمؤلف أو من لتطبيق العلمي أن تكرن العناية بالنسبة من الزواج، مدهوشة من خطبة الخطيب، ثم تدعل بعد وتعرض لشروط وتستعظم نفسها على بنى عمومها الفقراء، وليست هي يومئذ من الأغنياء؟

كلا ليس ذلك بالمؤلف ولا بالمطبق العلمي، ولكم تمحل لنظر فصيلته الكبرى أنه يهتم على أساس عاتمة وعلى هو إن أحق بالترجيح من كل تقرير مؤلف.

والبلادري - بعد - لم يذكر شيئاً من هذا وليس في كلامه عن مناقب على أو عاتمة شيء من قبيل الحوار الذي ينسب إلى الزهراء غير روايته الحديث بسنده

(١) عصاضة، ينسره من السبب والطراد، والمدن والاكسار تعور هو شرب بين العصاضة، وليس عيت في هذا الأمر غضاضة

وهو، «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبي إسحاق عن حبشي بن جعدة قال لما روج رسول الله ﷺ أرعدت فقال: استكتي، فقد روجت سيّدًا في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين».

هذا وجدها في نسخة المخطوطة من مخطوطة الأستاذية، ومن المطبوعة في أوريب، فتفسير «الرعدة» بذلك المعنى إنما هو من إبداع المؤلف الحقيق.

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه، يمر به لعبته الباعقة في وزن التواريخ العصرية المزعومة، ولا يعبه إليه لقول قاتل إن السيدة فاطمة كذب محرومة من الحمال، فإنه يوضح لما كان فيه مهابة على سدة شرفها أكرم الأبواب كما شرفها أكرم البواب، ولكن يعبه إليه لأنه عبدة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يصنفه حرص الأهواء فيفتري على العلم والدين ما تأبه أمانه العلم، ويعاونه أدب الدين.

ويعود إلى قياس الأخبار بالمواربة أو بما هو مألوف ومعقول، فيقول إننا بحثنا عن خبر من أخبار رواج البواب في آل محمد ولعل على، فلم نجد في عصر الغموة غير خبر واحد على قبيل الخبر الذي قبل منه إن السيدة فاطمة أشارت إلى مقر على حين بلغ خطبته لها، وهو تروج السيدة أم كلثوم.

وبين الخبرين، مع هذا، بون بعيد.

حاء في أسد الغابة عن حسن بن حسن بن علي بن أبي طالب أنه قال: «لما تأملت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخر عليها حسن وحسين أخوها فقالا: «بك من قد عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدهن، وإنك والله إن أمكنت عليا من رعتك ليحكك بعض أيامه وإن أردت أن تصبني بنفسك مالا عطيما لنصيبه»، هو الله ما قاما حتى طلع على يتكئ على عصاه فحسن حمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال: قد عرفتم منزلتكم عندي يا بنتي فاطمة واثرتكم على سائر ولدي لمكانكم من رسول الله ﷺ فقالوا: صدقت رحمتك الله، فحراك الله عما خيرا فقال: «ي بنية إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك، وأبنا أحب أن نعليه بيدي. فقالت أي أیه؟» بني أمراء أربع فيما برعت معه النساء وأحب أن نصيب مما نصيب النساء من الدنيا، وأبنا أريد أن أنظر في أمر نفسي. فقال لا والله يا بنية ما هذا من رأيك ما هو إلا رأي هذين، ثم قام فقال: والله لا أكلم رجلا

منهما أو بفعلين، فأحدا بثنائية فقالا احلس يا زنة، فوالله ما على هجرتك من
صبر اجعلنى أمرت بيده فقالت قد فعلت قال فابى قد روجتكم من عور من
جعف وزنه لعلام، ويحدث لها بأربعة آلاف درهم

هذه المؤامرة المحيية بين أخوين وأختهم ليسعداهم بروج أريد من الزواج
الذى يختاره أبوهـ تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على غصبه وتدل
فى سرها وعلايقها على أحمس ما يكون بين الإخوة والآباء من عطف وتوقير
وليس فيها من النسب بروايه انبلاذرى غير إشفاق الفتاة من عيشة انصك دون أن
يكون هناك خطب معروف تقابل خطيته بالأعترص والمرحعة، وشتان مقال أم
كلثوم وما رواه الرواة عن أمها اليتول^(١)

فإن كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعور عليه فأصله فيما هو
مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك
من عراية لأب لا بتحليل قصة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها
ذكرى أمه ورواح بيت أبيها، وقد فارقته أمها وهى صبية تدرك ما فعلته من
عطفها ويرف وإلصاقها لها فى رحابها وعسرهما، ثم يكون يوم الفصال فى عربة
من البيت الذى لرمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه، فمن جهدنا أن نتخيل فتاة لا
يحكى حين تحرم بنفسها تلك أسكريات وتقرب من اليوم الفاص بين معيشتها
فى كف أبيها ومعيشتها فى غير كفه، فموضوع العراية من نتيجاتها بعد الجهد
غير بأكية وغير أسية، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين
وأسى دفين على أمها يعريره لم يعارقها مدى السنين

ومثل النبى الذى كاتب كبرى فصائله أنه رسل عظيم، وأنه كان أبنا مكثوم
لقواد، أن يقوبه ذلك الخاطر فى ذلك اليوم، ولن يسكب عنه إلا عامراً علما بما
يلححه^١ فى النفس من الحر والشمج، فمن اللطف بالعبدة الحريه أن يحاشاه
وأن يحسن عرايه لها ما قاله عليه السلام «مالك تدكين يا فاطمة هوائه لقد
أنكحناه أكثرهم علما وأفضلهم حلماً وأولهم صلماً»

ولم يحسن غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطلت بهاء فاطمة
فى يوم أبيها فإنه عليه السلام كان يحتو عليها لصعفها وحربها ولا يصبر على

(١) اليتول المنقطعة عن الزواج

(٢) يلحجه يعج قلان النفس بالسيرة المنة وأحرق جلده، والحب موانه أحرقه

مراقبها، فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمص أيام حتى ذهب إليها فقال لها
 إني أريد أن أحولك إليّ فقالت: فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عني فإن رسول
 الله قد تحول حارث بن النعمان عدا حتى استحييت منه فبلغ ذلك حارثة فتحول
 وجاء النبي فقال: يا رسول الله، به يعني أنك تحول فاطمة إليك، وهذه مدزلي
 وهي أسقف بيوت بني النخدر بك، وإسماء وحالي لله ولرسوله والله يا رسول الله
 لئلا الذي تأخذ عني أحب إلي من الذي تدع فقال رسول الله صدقت بآرك الله
 عليك! فحولها رسول الله إلى بيت حارثة

جاء في كتاب السهمودي عن أخبر دار المصطفى «بن بيت فاطمة رضى الله
 عنها في الرور الذي في القبر سنة وبين بيت النبي ﷺ خوخة» وكانت فيه كوة
 إلى بيت عائشة رضى الله عنها فكان رسول الله ﷺ إذا قام اطلع من الكوة إلى
 فاطمة فمعهم خبرهم، وبين فاطمة رضى الله عنها قالت لعلي إن ابني أمسيا عليين
 فلو نظرت لدا أدم سمنصح به فخرج علي إلى السوق فاشترى لهم أدماء وجاء به
 إلى فاطمة، فاستصيحبت، فأبصرت عائشة المصباح عندهم في خوف الليل وذكر
 كلام وقع بينهما فلما أصبحوا سألت فاطمة لبي ﷺ أن يسد الكوة عندها،

إلى أن قال ما خلاصته من جملة أسديده: «به صلى الله عليه وسلم كان يأتي
 باب علي وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بفصدي»
 الباب ويقول السلام عليكم من البيت، ويقول: الصلاة ثلاث مرات، إنما يريد الله
 ليذهب عنكم الرحس أهل البيت ويظهركم تطهيرا وكان النبي ﷺ إذا قدم من سفر
 بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم بثني بفاطمة، ثم يأتي بيوت نسائه.

وأسد يحيى عن محمد بن عيسى قال: «كان لبي ﷺ إذا قدم من سفر أتى
 فاطمة فدخل عيب وأطال عندها المكت، فخرج مرة في سفر وصعدت فاطمة
 مسكتين من ورق» (يكسر لراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدم إليها
 وزوجها، فلما قدم رسول الله ﷺ دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يرون
 أنفقون أم يتصرفون لطلو مكته عندها، فخرج رسول الله ﷺ وقد عرف العصب

(١) خوخة: باب صغير كالساعة الكبيرة يكون بين بيتين

(٢) بمصدي: الفصادة بالكسر من الباب جارية، وهما مصادتان من يحيى الداخل منه وشماله

(٣) مسكتين: المسكة الموز والخلخال

(٤) ورق: المضة، والدرهم المضروبة

في وجهه حتى جلس على اسبر، فغطت فاطمة أمه عن ذلك لما رأى من
 المسكين والفقر والستر فبعت ثيابها وقلائدتها ومسكتها وبرعت الستر
 وبعثت به الى رسول الله ﷺ وقالت للرسول، قل له تقرا عليك بسمك السلام وتقول
 لك احسن هذا في سبيل الله، فيما أنه قال قد عبت، فذهب أبوها ثلاث مرات،
 ليست الدنيا من محمد ولا من أبي محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير
 جناح بعوضة ما سعى كافراً منها شربة ماء»

واستضعت الحياة في لسكن الحديد لدى نبي الى ظل النبي على مثال من حياة
 النبي في بيته عيشه كفاه وخدمة يعاين عيها رب البيت وربته، إذ كان ررق
 على من وطيه الحدى، ووظيفته من فيء لجهن وقد كان قليلاً في حياة النبي،
 وهو مفصور على الحرية العربية فكان يصيد على منه أقر من أن يتسع لأخرة
 انخدم، وكلف رزق وليدا جاءته حصته على قدر شأنه كشأن كل أب من المسلمين
 وما لبت البيت الصغير ان سعد بالدية وقد ررق الأيوان الفقيران مصيها
 صالحاً من الجبن والبنات الحسن والحسين ومحسن وربهم وأم كلثوم

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر، الذي كان يواليهم به جميعاً ولا يصرمه
 عنه شاعل من شواعله الحسام في محترم الدعوة والجهاد، وقد أوشك كل كلمة قالها
 في تدليس كل وعد أو الترحيب به أن تصبح ناريها محفوظاً في الصدور والأوراق

فيما ولد الحسن سمى والداه حرباً فجاء رسول الله فقال أروني ابني ما
 سميتوه؟ قالوا حرب قال بل هو حسن، وهكذا عند مولد الحسين، وعند مولد
 المحسن، وهذا هو صغير.

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه، وربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة
 حتى يبلغ بها صدر النبي والنبي يرقصه ويسأله ويداعب صغره وعصره
 بكلمات حفظها الأيوان ويم يلبث أن حفظها المشرقان

حَرْقُهُ^١، حَرْقُهُ، تَرْقُهُ، تَرْقُ عَيْنُ بَقَّةٍ

وربما شوهد النبي عليه السلام ساجداً وظهر من هؤلاء الأطفال راكب على
 كتفيه، فيسأله في صلاته ويطلب السحرة لكبلاً يرحله عن مركبه، وهي إحدى
 هذه السحرات يقول عمر بن الخطاب للظفر السعيد المظني مطيئلاً

(١) الحرق، القصير

بين ربما كان على المنبر، فبقى الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسوقه
حدايه إنيهما ويدول من المنبر ليحملهما، وهو يقول: «صلى الله اعظيم» إنما
أمواتكم وأولادكم فتنة».

وكان إذا سمع أحدهما يبكي تبارى فاطمة وقال لها: «ما بكاء هذا الطفل» ألا
تعلمين أن بكاءه يؤذي؟»

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حيناً بعد حين ويؤلى خدمه لأطفال
بفسه وأبوابهم قاعداً فعلى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستسقى فقام صلوات
الله عليه إلى قرية فجعل يعصرها فى الغدح ثم جعن يعصيه، فصار الحسن فمدحه
ويداً بالحسن، قدت فاطمة كأبه أحد إليك؟ قال إنما استسقى أولاً

وقد يسلهم جميعاً فى برد واحد يقول لهم: «أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد»
وكانت هذه الأتوة كثيرة أعر عليهم جميعاً من أبوة الأب الصغين فكانت
فاطمة تقول إذا رفضت طفلها

وابلى شبيهه القبيح لست شبيهة به وعلى

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين الذين يتنافسون على حب لا يمنع
بعضهم بعضاً أن يتنافسوا عليه

• • •

حياة سعيدة مع الشطف والفاقة سعيدة بالعصف فى قلوب كبار، ما كان
حطام الدنيا عندها ليساوى متقار ذرة من هباء.

ولم تحل هذه الحياة، وما جلب حياة آدمى قط من ساعات خلاص وساعات
شكوى فريماً شكت فاطمة وربما شكا على، وربما أخذت فاطمة على قريبها
بعض الشدة وما هى بشدة، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله
وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وبهاؤها أن
تهمل حيث كنت، وإنما هو الحسان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح إلى ما
دونه، وكل حسان بعد حسان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوه أو قريب من القسوة عند
من يتفقد فلا يجد نظيره فى قلب إنسان.

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما في كل خلاف، وربما ترك مجسده بين الصحابة ليدخل إلى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء. والمصاحبة الذين يتتبعون في وجه النبي كل خالعة من خواجج نفسه، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من صميره ما يضرب به على المنعك واستبصر يجرؤون معه على عاداتهم كلف دخل البيت مهموماً وخرج منه مطلق الأسارى، فيسألوه فيجيب: «ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس إلي».

ومرة من هذه المرات، بلغ لعناب عايه ما يبلغه من خصومه بين زوجين، وهي إلى فاطمة أن عليها بهم بالرواج من بقت هشام بن المغيرة فذهبت إلى أبيها باكية تقول: «يزعمون أنك لا تعصب لبياتك؟»

كلمة تعلم وقعها في نفس أبيها «لدي ما رعمت هي قط أنه يرصى بما يعصبيها، وقد عرف أبوه ما تعني» لأن بني هشام بن المغيرة استأدبوه في تزويج بنتهم من زوج فاضلة، فصعد المنبر والغضب ياد عليه، وقال على ملا من الحاضرين «ألا إن بني هشام بن المغيرة استأدبوني في أن ينكحوا ابنتهم عليها، ألا وإنني لا أذن ثم لا آس ثم لا أدن إنما فاطمة بضعة مني يُرصى ما رايها».

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء في رواياتها المختلفة، ولكن نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبسعت النبي وحفظت عنه، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين، وأهلها هم من هم في المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن أبي طالب من ذوي قرابتها، أو لعلها غصبة من غصبات علي على أمة من أعباء فاطمة، أو لعلها نارعة من نوازع النفس البشرية لم يكن في الدين ما يأبأها وإن أبها العرف في حالة المودة وانصحاء ولا محسب أن حياة الزمراء والإمام تعرضت لعلاقات غير الذي أشربا إليه، فإن كتب السيرة تستقصى كل حليل ودقيق من الحديث عن درية النبي. وهي وأبناؤها كل درية النبي الذين عاشوا بعده ولم يطل به العمر فلحق بآل النبي صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر، وكان على قدامه نفسه لا يعصبيها وقد غابت عنها عين أبيها، فلم يخصصها بعد ذلك حتى في أمر الخلافة، وهو يومئذ أجل الأمور



بلاغتها

قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر في كتاب بلاغات النساء « لما أجمع أبو بكر رضي الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله ﷺ من ذلك فاطمة لا تلت خمارها على رأسها وأقبلت في لعة من حداثتها تطأ ديولها ما تحرم من مشقة رسول الله ﷺ شيف حتى دخلت على أبي بكر وهو في حشد من المهاجرين والأنصار فحيطت بوبها ملاءة ثم أنت أنة أحضرت القوم لها مالهكة وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن بشيح القوم رهدأ فورسهم فاستتحت الكلام بحمد الله ولصلاه على رسول الله ﷺ فبعد القوم في بكائهم فلما أمسكوا عادت في كلامها فقالت

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم، فإن تعزوه تحذوه أبي دون سائكم، وخي ابن عمي دون رحالكم قبلخ الدارة صعداً بالرسالة، مانلاً على مدرجة المشركين ضرباً لشجبهم اخدا بكظمهم، يهشم لأصصم ويبتك الهام، حتى هوم الحمع وولوا الدبر وتقرى اللير عن صبحه وأسفر لحق عن محصه، ويطوق رعيم لدير وخرسب شفافق الشياطين، وكنتم على شعا حفرة من النار مذقة الشارب وبهزة بطامع وقبسة العجلاي وموطن الأقدام تشريون الطريق^(١) وتقناتون القدا، أدلة خاشعين تخافون أن يتحطفكم الناس من حولكم، فصدقكم الله برسوله ﷺ بعد اللثيا والتي وبعد ما منى بهم الرحا وذويان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا نارا للحرب أضعأها وجم قرن للصلال وممرت فاعرة من العشريين قدف بأخيه في لهواتها فلا ينكفن حتى تطأ صماحتها بحمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكذوباً في داب الله قريباً من رسول الله، سيداً في أولياء الله، وأنتم في بكهنية وادعور امنون، حتى

(١) الشجن (يسكون للحيم وتصريكها) الطريق الوعر (يمانيه)

(٢) الطريق الماء المطروق.

يا خبار الله لبيته في دار ايبائه طهرت خة الفاق وسدل جناب الدين ويطق
 كظم اغاريين ونسج خامس الازهير وهدر هيق ' المعطلين محضر في عرصهكم
 وأطلع الشيطان رأسه من معرره، صارخاً بكم، هوحدكم بدعائه مسجيين
 ولعرة فيه ملاحظين هاستهصكم هوحدكم خفاها واحصكم هأنفكم عصابا،
 هوسمتم غير إسمكم، وأوردتموها غير شريككم هه والعهه قريه وسكلم رحيه
 والحره لما يندمل، »

إلى أن قالت: «وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، فحكم الحاهلية تبعون، ومن
 أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون أياها المسلحة المهاجرة آلت إرث أسى؟ هي
 اكتتاب أن ترثي أبك ولا أرث أبي؟ لقد جئت شيئا فريا، هسويكم مخطوطه
 مرحولة تلقاك يوم حشرك هنعهم الحكم لله والرعيم محمد والموعه انقيصة وعه
 الساعة يخسر المبطلون ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون»

ثم انخرعت إلى قبر النبي ﷺ وهي تقول

«قد كان بعدك أنبياء وهبيته

لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب

إذا فقدناك فقد الأرض وبلها

واخسر قومك ماشهدهم ولا تعب»

هذه رواية لخطاب الزهراء، وفي الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة في
 ألفها ومعناها للرواية السابقة، وقبل إيراء الروايتين قال أبو الفصـ
 لأبي الحسين زيد بن علي بن الحسين بن عيسى بن أبي طالب صلوات الله عليهم
 كلام فاطمة عليها السلام وقلت له إن هؤلاء يشير إلى قوم في زمانه يعصون
 من هدر ال نبيـ يرعمون أنه مصبوع وأنه من كلام أبي العباء بقدر لي
 رأيت مشبح آل أبي طالب يروونه عن آبائهم ويعصونه أبناءهم وقد حدثني
 أبي عن حدي يطلع به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ
 الشيعة وندارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبي العباء، وقد حدث به الحسن بن
 علوان عن عطية العوفي أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه ثم قال

(١) المتيق الجمال القوي

أبو الحسن وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أمها ما هو أحب من كلام فاطمة بتحقيقه لولا عداوتهم لنا أهل البيت^(١)

ونسب إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالها بعد موت أبيها صلوات الله عليه، وأنها بعد دفعه أقبلت على أس بن مالك فعلت «يا أس» كيف صابت أنفسكم أن تحنوا^(٢) على رسول الله لترا^(٣)؟ ثم بكّت ورثته قائلة
اغبرّ أهراق السماء وكسورت^(٤)

شمس النهار وأطلم العصران
فالأرض من بعد النبي كديّة
أسفا عليه كثيرة الرجفان
فليبيكه شروق البلاد وغربها
ولتبيكه مضر وكل يمان
وليببكه الطود المعظم جيوده
والسميت دو الأسنار والأركان
يا خاتم المرسل المبارك ضوّه
صلى عليك منزل القرآن

ووقعت على قبر النبي وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينيها وبكت وأبشأت تقور

مناذا على من شمع قريّة أحمد
أن لا يشم مدى الزمان عواليها^(٥)
صابت عيني مصائب لو أنها
صابت على الأيام صون لياليها

(١) تطلوا حثا لترا^(٢) عليه وهي وجهه قبضه وزماده

(٢) كورت كور دلا^(٣) طعمه عالمه اجتماع المتاع صممه وأبقاء بعضه حوى بعض وسده

(٣) عوالي القوالى جمع عادية، وهي طيب مركب من أجلاط تغلى على النار

وقالت على قبره أيضا

إنا فقدناك فقد الأرض وابسطها

وغاب هذا غيب عما الوحي والكسب

عليك قبلك كان الصوت صادقا

لما نعت وحالت دونك للكثير^(١)

ومضى أبناؤها تمنلت بعد خطابها عن هدايتي من البحر والقافية مع
تكرار شطر منهما وهما

قد كان بعدك أنباء وهدية

لو كنت تشهدهم لم تكثر الخطب

إنا فقدناك فقد الأرض وابسطها

واختل قومه فاشهدهم ولا تنهب

وفيها كما يرى القارئ إقراء، لأن الباء مصمومة في روى البيت الأول
مكسورة في روى البيت الثاني، ولعل شطرا منهما حل محل شطر في نقل الرواية

* * *

نقول إن الخلاف في أمر هذه الخطب وهذا الشعر كثير، ولا أحب أن يحوص منه
لأنه خلاف على غير طائل، وقد يحسمه أن يذكر في هذا الباب ما يقف فيه الخلاف
بين جميع النقاد فإنه أحدى من اللهو في جدال لا سند له، يسلمه جميع المخاضين
فيقول الخلاف ولا شك حين يذكر أن ذلك الخطب ليس مما يندر من اللسان عفو
بحاظره، وإن قائمه بعده في نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل
استخدام الكتابة في التخصير

ويقف الخلاف ولا شك حين يذكر أن سامع هذه لخطاب لا يستطهره عند
سماعه، فإن حفظه فربما يحفظه مفعولا أو مكتوبا بعد حفظه

فإذا قل الخلاف في هذا معلوم إذن يكثر الخلاف؟

(١) الكتيب، جمع كتيب، وهو القل من الرمل

أُتِراه بكثر حين يقال إن السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين يحتقر لها ويعدّها في خدّها؟

إن هذا الحبيب من ابلاعه إذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد في عصرها لا يستكثر عليه

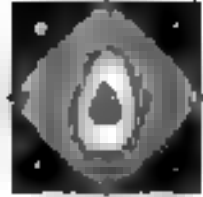
لقد نشأت وهي تسمع كلام أبيها أبلغ البغاء وانتقلت إلى بيت زوجها معاشة ستين تسمع الكلام من إمام متعز على بلاغته بين محبيه وشائتيه، وسمعت القرآن يترن في الصلوات وفي سائر الأوقات، وتحدث الناس في رماها بمشابهتها لأبيها في مشتها وحديثها وكلامها، ومنهم من لا يحذيه ولا يطلق في أمرها عن الهوى

جاء في الجزء الثالث من العقد العريد عن «الرياشي عن عثمان بن عمرو عن إسرائيل بن ميسرة بن حبيب، عن لعنهان بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله ﷺ من فاطمة، وكانت إذا دخل عليه أخذ بيدها ففعلها ورحب بها وأجلسها في مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده وقبلتها، فدخلت عنده في مرضه الذي توفي فيه، فأسر إليها فبكيت، ثم أسر إليها مضحكت، فقلت كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هي واحدة منهن، بينما هي تبكي إذا هي تصحك فلما توفي رسول الله ﷺ سألتها فقالت: أسر إني فأخبرني أنه ميت فبكيت، ثم أسر إني إني أول أهل بيته لحوقاً به فصحكت»

وما قالته السيدة عائشة عن المشبهة بين الزهراء وأبيها قين على السنة الثقات جميعاً، ويراد عليه في حديث السيدة عائشة أن امرأة في فصلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء في حلمها وورعائها فقيم بكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة إذا نسب إليها؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعه لعدين محمد مطبوعة على مشابهة في حديثه؟ ولماذا تستعظم على زوجة الإمام الذي كان المتفقون على

بلاعه أكثر من المتففين على شحاته، وهي مصرب الأمثال؟ ولما تستعظم
 على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع اندكاء واللب اراحح؟
 أما نسه الشعر إلى انزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها في
 لشاعرات إن قتت، ولا يصيورها إن لم تثبت، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه
 أقرب منا إلى جانب القبول، وليس بعيداً على غير الشعر أو المشاعرة أن يدير في
 همه أبياتاً يحكى بها حربه وبثه، فإن النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادة
 الحبيب، ولكن السيدة فاضلة كان لها من الاعتبار بايات من القرآن في مقام
 الموت على عن نظم الأبيات أو لتمثل بها في مقام العبرة والبرقاء

* * *



فى الحياة العامة

صحت اسبون ولسيدة فاضلة على دنياها الذى عهداه عاكمة على بيتها،
يزندها عكوف عبه مربية الأبناء وخدمة الميب لتي تنعرد بها ولا تحد معين
عليها فى كثير من الأيام غير روحها

ثم توفي النبي صلوات الله عليه، فأقامتها الحوادث فجأة على غير مراده فى
معترك الحياة العامة أو احياء السبسية كما نسميها فى ساحت، ولم يكن لها
منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة، لأن الخلاف فيها كان خلاف على
ميراث أبيها، ميراث الخلافة، وميراث الزكاة القليلة التى أعقبتها

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبي إحدى المسائل التى طار فيها الجدل ولا
يعسر على المتصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى منعق عليه،
وداك أن الخطر الأكبر فى ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة سقيفة بني
ساعده، حيث اجتمع قدام الحرج برعامة شيخها سعد بن عبيدة، بطلب
الإمارة، ثم تصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه
وبذوه ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين أمير من الأنصار وأمر من
المهاجرين وما يرج سعد بن عباد على حلاله شأنه فى قومه ما هو من البيعة
لأبى بكر بعد معادها وهو سألنى لا أن يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس
فانه لهم دون الناس» ثم أصر على إتيانه حين انقضى جمع السقيفة وجاءه
الرس يدعوه بالمبيعة فعارضه العصب وقد لهم «أما والله حتى أرميكم بما
فى كبائتي من ثيل وأخصب سذن رمي» وتناشدوه أن لا يشق عصا الجماعة
معاد يقول رانى صار بكم بسيفى ما ملكته يدي، مقتلكم بولدى وأهر بيتى
ومن أطاعنى من قومى وإيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإيس ما بايعتكم
حتى أعرض على ربي»

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر في حاضره ولا في معيته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره^(١)، وهو خطر الفتنة التي راح أبو سفيان يحضأ^(٢) نارها بين علي والعباس وبين بني هاشم وسائر بطون قريش بعد قوماً بنصرة بني أمية ونصرة قريش من ورائها، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمقل هذا الوعيد، وما كان من همه أن يصف بني هاشم ولا أن يؤيد الأنصار وإنما أراد لوقية التي يدخلهم بها جميعاً ويخرج منها بالسبادة الأولى التي كانت له على قريش في الجاهلية

وما من شك في خطر هذه الفتنة من أبي سفيان ولا خطر تلك الفتنة من سفيانة بنى ساعده، فاحسنت الفتنة بالعتقاد البيعة لأبي بكر، ولم تطلبها، بل كان مشتغلاً بذهن الرسول، ودعى إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باستنعاله ويفحص لدعوته، حتى هم عمر بمبايعة أبي عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع في السقيفة بين الخرج والأوس والأنصار والمهاجرين، وفيه أن تنجح المسعاة من أبي سفيان في حوائها وقد كاد أن يعلنها

وكان على في تلك ساعة العصبية إلى حوار الحثمان الظاهر المسحى في حضوره، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً «يا أبا الحسن هد محمد قد مضى إلى ربه، وهذا ترائه لم يخرج عنكم، فابسط يدك أيها عبدك».

ويقول عمه العباس «يا بن أخي هذا شيخ قريش قد أقبل، هامن يدك يا بيعت ويبايعك معي فإنا إن يابيعك لم يختلف عليك أحد من بني عبد مناف، وإنا يابيعك عبد مناف لم يختلف عليك قريش، وإنا يابيعك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب»

فيحييه على «لا والله يا عم... إني لأكره أن أبايع من وراء رتاج».

ولقد كان أحكم في جوابه هذا من شيخ الدهاء من بني هاشم وشيخ الدهاء من بني أمية، هما للخلافة معدى عنه إن كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين، وما للبيعة هناك جدوى إن تص وراء رتاج واشتب بعدها عصا المبايعين والمعارضين

(١) يقطع دابره الدبر آخر كل شيء. يقال قطع الله دابرههم أي أحرز ما تفيهم منهم

(٢) يحضأ: حضأ النار أرتها وأشعلها

ولقد تمت البيعة على الوجه لدى عرفه التاريخ، فمن يكن هناك جدل ولا جدال بين المنصفين في فضل الأئمة الذين أدركوا الفضة قبل مسعاها من السهيفة ومسعاها من دار أبي سفيان. ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة، فما ابتغى أبو بكر ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً لأنفسهم وما قصروا بعد يوم ابيعة في بصرة دينهم، وما كان في وسع أحد أن يبلى أجمل من بلانهم في دفع الغائلة عن الإسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم، ولا أن يفتح للإسلام في العراق والشام وفارس ومصر فتحة أعظم وأقرب مما فتحه وامن على بحقه في الخلافة، ولكنه أراد به حقاً يطلبه النفس ولا يسبقهم إلى طبعه، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبي بكر وعمر كأنه في عون رسول الله وهو بقيد الحياة

وقد اختلف الصديق والفاروق والإمام يوماً أو أياماً بعد وفاة النبي عليه السلام، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذلك، ولكن الحجة الباهضة بهم حمض أنهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لغيرهم، ولم ينفقوا دور العاية في خدمة دينهم، ولم يخنى أحد منهم حياته تريب في صدقه وصدق طويته وحسن بلائه، وما مات أحد منهم وله من الدية نصيب بأسى عليه

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على في الخلافة، أو ترى أن رواية النبي أحق بمسلمين بخلافه، وأن بلاء على في الجهاد وعلمه المنهود به مؤهله لمقام الخلافة وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين «دهشهم أن يحرى الأمر على غير هذا المجرى، فاجتمعوا عندها واجتمعوا في غير بيتها يتشاورون فيما بينهم أيبايعون أم يتحلفون ولم يطلع على رواية واحدة ذات سند يعون عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعي في تأليب الناس على نقص البيعة ويعد مساحلات بينهم وبين أبي بكر وعمر سقرت الفتنة عن مقصدهم وتكشفت الدسيسة التي بيثها أبو سفيان، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على علي وينحفر للوقية عصبه على وعرض له بذكر العشقة والمهادنين، ثم قال له «إنك تريد أمراً اسماً من أصحابه»، فلما ينس من هذا الباب طرق باب آخر لعله يلج منه إلى مأربه وذهب إلى العباس يقول له «امسك يدك يا أبا الفضل أبايعك

هلا مختلف عليك القوم» ثم بقول «إني والله لأحق بميراث أبي أخيك» فيرده العباس كما رده علي، ويكاد الحلاف ينتهي عند هذا ويضطوي باضطواء الكلام في مسألة الخلافة لولا مسألة «هناك» أو مسألة الميراث التي اختلف فيها سيد أبي بكر وسيد فاطمة مرة أخرى، وأما شك أبو بكر أن يستعمل المسلمين من يبعثهم، مضافة السخط من بيت رسول الله.

وخلاصة الحديث هي أمر «فدك» أنها قرية كان النبي يقسم منها بين آل بيته ومفراء المسلمين، فلما قصى عليه السلام أُرست فاطمة إلى أبي بكر بسأله ميراثها فيها وفيما بقي من خمس خيبر فقال أبو بكر «إن رسول الله ﷺ كان يقول إنما معشر الأنبياء لا يورث ما تركاء صدقة وإني والله لا أعير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كان عليها» ويقال إن امرءاً احتج عليه بقوة تعالى عن نبي من أنبيائه - ركريب - يرثني ويرث من آل يعقوب» وقوله تعالى «وورث سليمان داود» وإن أبا بكر قال لها «يا بيت رسول الله أنت عين الحق ومنطق الرسالة لا يد لي بحوائك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسر بيبي وببيك هو الذي أخيرني بما تفقد وأبأني بما أخذت وتركت».

وحاء في شرح ابن أبي الحديد على نهج البلاغة «إن أبي بكر قال يا أبا عبد الله رسول الله ﷺ والله ما ورث أبوك ديناراً ولا درهما وإنه قال إن الأنبياء لا يورثون فقال إن عدك وهبها لي رسول الله ﷺ، قال فمن يشهد بذلك؟ فحاء علي بن أبي طالب فشهد وحاءت أم أيمن فشهدت أيضاً، فحاء عمر بن الخطاب وعند الرحمن بن عوف فشهد أن رسول الله ﷺ كان يقسمها فقال أبو بكر صدقت يا بيت رسول الله ﷺ وصدق علي، وصدق أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن بن عوف، وذلك أن مالك الأنبياء كان رسول الله يأخذ من ذلك قوتكم ويقسم الباقي ويحمل منه في سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قال أصنع بها كما يصنع بها أبي قال فك علي الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك، قالت الله لتفعلن؟ قال الله لأفعلن قال اللهم اشهد وكان أبو بكر يأخذ عتبتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقي، وكان عمر كدس، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان علي كذلك».

وهي خلاف على هذه القضية قال عمر لأبي بكر «انطلق بب إلى عاصمة
 بيت قد أعصباها» فانطلقا فاستأدب عليهما فم تأس بهما، فأتيا عليًا فكلماه،
 فادخلهما فمما قعد عندهما حولت وجهها إلى الحائط فسلط عليها فلم ترو عييهما
 السلام، فتكلم أبو بكر فقال «يا حبيبة رسول الله، والله إن قراءة رسول الله أحب
 إلى من قرأني، وإنك لأحب إلى من عاشته ابنتي ولوددت يوم مات أبوك أني من
 ولا أبقي بعده، لغترسي أعرفك وأعرف فصلك وشرعت وأسمعك حقك وعيرائك من
 رسول الله؟» لا يسي سمعت أباك رسول الله ﷺ يقول: «لا نورث ما تركناه فهو
 صدقة» فقالت «أريتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله تعرفانه وتعملان
 به؟» قالوا «نعم» فقالت «سأدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضاء فاضمة
 من رضائي وسخطها من سخطي؟» قالوا «نعم سمعناه من رسول الله» قالت
 «فيئني أشهد الله وملائكته أنكما سخطتماي وما أرضتتماي، وإن لغيب النبي
 لأشكوبكما إليه» فقال أبو بكر «انا عائد بالله تعالى من سخطه وسخطك يا
 هاطمة»، ثم انتحب يبكي حتى كادت نفسه تزهرق ثم خرج فاحتجم إليه الناس
 فقال لهم «سبيت كل رجل منكم معاني، خليفته مسرورًا بأهله وتركتموني وما أنا
 فيه؟ لا حاجة لي في بيعتكم أقولونني بيعتي»

واحد من هي مسألة مدك هو كذلك من الأحداث التي لا تنتهي إلى مقطع
 لنقول متفق عليه: غير أن الصديق فيه لا وراء أن الزهرء أحن من أن تطلب ما
 ليس لها بحق، وإن الصديق أحل من أن يسلب حقها الذي تقوم البينة عليه،
 ومن أسخف ما قيل إنه إنما معها مدك مخافة أن ينفق على من عنها على
 الدعوة إليه فقد ولي الخلافه أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ولم يسمع أن أحدًا
 بايعهم لما أخذهم منهم، ولم يرد ذكر شيء من هذه في إشاعة ولا هي خبر يقين،
 وما نعلم من تركية لدمه الحاكم في عهد الخليفة الأول أوصح بينه من حكمه
 في مسألة فدك، فقد كان يكسب برضى فاضمة ويرضى الصباية برضاها، وما
 أخذ من فدك شيئًا لنفسه مما ادعاه عليه مدع، وإنما هو الحرج في دمه لحكم
 بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين، رضوان الله
 عليهم أجمعين

ولعلنا نحمل ما وقر في أدهان المسلمين الثقافات من أمر هذه بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها، بعيداً من الخصومة بعيداً من زمانها، بعيداً من الشبهة فيها، لأنه قال كلمته وهذه هي يديه يفرز عنها باختباره، لا يدعو إلى ذلك داع غير وحي ضعيره

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل في مسهل عهد بالخلافة «إن فذك كانت مما أماء الله على رسوله ولم يوحف المسلمون عنه بحيل ولا ركاب، فسأله فاطمة إياها فقال ما كان لك أن تسألني وما كان لي أن أعطك، فكان يصع ما يأتيه منها في أبناء السبيل، ثم ولي أبو بكر وعمر وعثمان وعلى فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله ثم ولي معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبي وعبد الملك، فصارت لي ولوليد وسليمان، فلما ولي الوليد سأله حصته منها فوهبها لي، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لي، فاستجمعتها، وما كان لي من مال أحب إلي منها، فاشهدوا أنني قد ردتها إلي ما كنت عليه»

في هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شئون بيتها والابتعاد من الحياة العامة لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة^(١) قريبها، وهما مسألة الخلافة بعد النبي ومسألة العيراث من بينه، وإحداهما ما نسميه في لغة عصرنا بالسياسة العلب، والأخرى ما نسميه بسياسة الحكومة لسالية أو الاقتصادية. ولكل منها حواش منفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسة من نحوف أما في الدراسات النفسية فالمهم قيهما وفي غيرهما هو ما تفرحمان عنه من خلائق صاحبه الميرة. وما تفرحمان عنه حين يوجره هو قوة إيمان بحقها تثبت عليه و«شخصية» مستقلة لا يهم لها حساب

* * *

(١) يوهف، أرجف للمارسى فرسه حله لكي يجد في السير

(٢) وشيجة الوشجة عرق الشجرة وما التفد من الأشجار ونحوها يقال بهمهم وشائج النسي

وَفَاتُهَا



قلنا في «عبقريّة محمد»

«حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التي دقت عن الفهم وحاترت في تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة، وهو لا ريب يحرق على ناسور مطرد في جميع طبقات الأحياء، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسير عمقه ولا نرى على امتقضاء بعض الملاحظات التي تقارب الحقيقة، أو هي أهرب ما نستطيع الوصول إليه»

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يحرق على سنه المكافأة والتعويض في معظم حالاته، فيقاس النقص في جانب بالزيادة في جانب آخر، ويقابل الفصور في مزية من المزايا بالإنقار في مزية أخرى

• • •

والأحياء السفلى عرصة للعلب، الكثير في طرد الولادة والحصابة، فيقاس هذا أن الأحياء السفلى ترس درياتها بالألوف وألوف الألوف، فيبقى منها القليل الكافي لدوام النوع بعد قضاء الكثير.

«والأحياء العليا يقل عدد المولود منها في البطر الواحد فيقابل هذا أن تحصل حصانتها والعناية بها، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة في الأحياء السفلى

ويجب أن يريد نفسل حين تكون ريادة البس هي الوسيلة الوحيدة التي يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وصمان دوامه فإذا بسرت لفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه بعد وجود ذلك على بسه ويسقص من فسحه في أباته، كأنما خدمة النوع صربية مفروضة على كل فرد في صورة من الصور، فإذا أداها في صورة أعنى منها في الصور الأخرى أو كأنما هي مواهب وأرواق لا يستوفىها الفرد الواحد إلا بشن عال يحسب عيه، ويودي حسب النوع على نحو من الأنحاء

والإنسان أقدر مخلوقات الحية على خدمة سوجه بوسائل كثيرة لا تحصى في
تحديد النفس وزيادة غنائه

ههنا يحور لنا أن نقول إن العطاء الدني حرمو السبل قد أدرا صربهم
بإصلاح شئون الناس فلم يبق من اللارم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الصربية
من طريقة الذرية؟

إن لنا ذلك فإما نقوله على سبيل الملاحظة الصربية التي أشربا إليها،
ولا نبع تلك الملاحظة قوو ميلعها من البقير الذي تستحقه، فغاية مبلغها
عندنا أنها نستوقف النظر للتأمل وامراحة ولا تفصى بنا إلى الحرم أو إلى
التغليب..

فبعض لعطاء من أكبر خدم السوع لم يتزوجوا وبيهم أنبياء معطون لا شت
في سيرتهم من هذه السحية، كعيسى عليه السلام

وبعض العطاء الذين تزوجوا لم يرقوا الذرية، أو رزقوا ذرية كلها إناث،
أو رزقوا ذرية من الإناث واسكور وبم يعيسو أو عاشو ولم يعصروا ولا كانوا على
حالة مستحبة من الصحة والنجابة

وتواريخ العطاء في جميع نواحي العظمه وفي جميع الأمم، وفي جميع
العصور، حافلة بأشواهد التي تعزز تلك الصلاحية وتحققها خليقة بالتأمن
وامراحة، يدخل فيهم القديسون كم يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم
العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمحترعون، ويدخل فيهم القاده
العسكريون. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن في بلد
قريب يعرفه حق المعرفة لشاهد مصداق ذلك في نفر من عظمائه ومشهوريه،
وحسبنا في مصر أسماء جمال الدين الأفهاني ومحمد عبده وسعد رعلول
وعبد الله مدني ومصطفى كامل ومصطفى فهمي ومحمود سامي البارودي
وحافظ إبراهيم.

فإذا جاز لنا أن نقف عند لملاحظة وأن نتأمل مغزاهما، وجاز لنا أن نفهم أن
إصلاح شئون النوع الإنساني صربية تعنى عن صربية الذرية في بعض الأحوال
فأين نربا نجد تلك الصربية في أرفع حالة وأعلى قيمة إن لم نجدتها في رسالة

سيرة تتناول الأحياء وتتناول الملايين هي كل حين؟ وى أبوة روحانية تغنى عن
أبوة اللحم والدم كم تغنى أبوة اسى لدى بتكن بتربية لأرواح فى مته. وهى
أمم لا يلقاها هى رمته. وأسم لا تراب بسجد بعد رمته إلى أقصى الرها؟
بذكر هيا حين بذكر حظ محمد مر الأبوة الروحية ومن الأيوه لوعيه وبرى
تكافوا فى الحابين حديا بالملاحظة والاعتبار»

* * *

نعم وبذكر هيا حين سكر وهاء الزهراء فى رهرة الشباب، فى الثلاثين أو ما
سوى الثلاثين

سات الدكور من درية محمد صغار بم يحاوروا من الرصاع وعش الإثاث
من درية ريم بررق طول العمر وحنين من لم يرق قوه البسة فى عصفوان
اسباب

وكانت ازهراء بحيله سمراء، معارج لوبها بشحوب فى كثير من الأوقات. وقد
رأها البى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها إنها أصرع أهله لحوقا به، فلم
تمص ستة شهور، وهبل أفس من ذلك، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقي
عياها الحياة

وكانت بشكو حيا بعد حين، ويعودها البى بواسيها فى مرضها فإذا هو
يوسيه كذا فى حاجتها، زارها يوماً وهى مريضة فقال لها

«كيف تحديث يا سيدة؟» فقالت «إسى لوحدة ثم قالت «إنه يريدنى أنى
مالى طعام اكله مستعير عليه السلام وقال: «يا سيدة أم ترهين أنك سيدة
نساء العالمين؟»..

ورارها يوما وهى نصح بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل، فبكى وقال:
«نجرعى يافطة عرارة الدنيا لبعيم الأخرة»

ولم يكن صلوات الله عليه يحس على فاطمة بما يملك من الأنهار، فكان
يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقا بين ذويه وروحاته، وبكها
كانت فاقه تعمهم جميع حين لا يجد البى ما يفرقه بينهم، وقد شكت روحاته

(١) الأنهار: العمل بفتحين، الضميمة والهة

تلك الفاقة مخيرهم بين السريح ليعصم بالحياة الدب وريحتها، أو يردن الله
ورسوله فيصيرن على ما هو صابر عليه
الله أكبر!

* * *

مثل محمد يعلو على إشفق المشفقين ومن كان في قدرته أن ينعم من الدنيا
بما يقطع قلوب الحاسدين حسدًا، ثم يرضى لنفسه وأله منزلة الإشفاق، وذلك هو
الإعظام غاية الإعظام، وذلك هو المرتقى لذى قيل فيه
ويعود بلوغ هاتيك جذا
نسلك علينا مراتب الانجباء

أر محمدا يكي لأنه يرى أحد لناس وأقربهم منه حائعه مرهقه ثم لا يملك
لها ما يستعجب ويعجبها من عفتها، وهو يملك كل شيء في الحرية العربية
ويسأل السائلون من زعامة المعطلين والمعصبين أعداء كل دين «وما يرهى
البوة عند محمد»^(١)

الله أكبر إن لم يكن هذا برهان البوة فبرهان أى شيء يكون؟

* * *

ولم يكن بالرهراء من سقم كامن يُعرف من وصفه، فإن العرب لوصافون وإن
من كان حولها من أن بيتها بمن أقبر لعرب على وصف الصحة والسقم، فما
وقعا من كلامهم وهم يصفونها في أحوال شكواها على شيء يشبه أعراض
الأمراض التي تذهب بالناس في مقتبل شبب، وكل ما يتبين من كلامهم أنه
الجهل والصعف والحرر، وربما حتمع إليها إعياء لولادة في غير مواعدها، إن
صَحَّ أنها أسقطت «محسناً» بعد وفاة النبي كما جاء في بعض الأخبار
ويعود شغلها إليها ضريبة البوة. ركم لهدنة من ضريبة تصاعف على الهداة
مرات بعد مرات!

* * *

وحضرها الموت وخذلنها جوارحها، وعريتها في مواجعه اموت حاضرة لا
تخذلها، فتولت أمر عسها وحملها على العيش بدعها، وقامت لصاحبها أسماء

بنت عميس بعد أن اعتسلت كأحسن ما كانت معتسل «يا أمه ثيابي بثيابي
لحد» فلبستها ثم قالت «قد اعتسلت، فلا يكشفن لي أحد كنعاً»^(١)، وشكت بحوى
جسمها فقالت لصاحبتها «أستطيعين أن تواربني بشيء؟» قالت «إني رأيت
الحيثة يعملون السرير للمرأة ويشدون المعش بعوائم اسرير» فعزل لها معشها
قبل وفاتها، ونظرت إليه فقالت «سترتموي ستركم الله» وتيسمت، وبم مر
مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها

* * *

وكانت وفاتها، على القول الأشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خيل من رمضان سنة
إحدى عشرة للهجرة، ودعت ليلاً حسب وصايتها كما أمر رسول الله ﷺ
في كل بين صورة لأميئة تكامة المقدسة ينخسح بتقديسها المؤمنون كأنما هي
بنة الله فيما خلق من ذكر وامثلي
فإن تقدرت في المسححة صورة مريم بعداء في الإسلام لا حرم تقدرت
صوره فاطمة البتور.

* * *

(١) كنعاً: الكنف، المحبس، الحائض، والباحية وهو جعش من كشف الأمير أي في ذلك وكعب الله حبه وسره



شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء في التاريخ؛ لأنها بنت نبي، وزوجة إمام، وأم شهداء.

ولكن لا يتضح هذا الوضوح، ولا يبين هذا النعاس، أنها تأخذ مكانها هذا بحرفها الشخصي. أو بصفته التي كان لها أثر في حوادث التاريخ.

وهذا لدى حب أن يقرره هي الكتابة عن الزهراء، فهي أصل قوي من أصل الدعوة التي ثبتت في محرى الزمن أحياناً طويلاً ولم تزل لها آثارها في عصرنا هذا، ونسعى إلى من العصور.

لم يعرف التاريخ نظيراً بثبات بني علي وفاطمة على حقهم في الإمامة أو هي خلافة.

حاربوا فيها رمداً، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس في قصصهم عليه، كبريد بن معاوية، فأبقوا أن يتركوها استحياء وحضوءاً وحاربوا فيها كما حاربوا. وصعدوا للطلب الحثيث صالحين ومطربين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلاثمائة سنة، حتى دأب لهم الخلافة باسمهم في عهد الدولة الفاطمية.

لولا خصال فيهم نعين على هذا الضلال لما ثبتوا عليه هذا الثبات، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعبث من بني أمية ثم من بني العباس، ومعهم في المشرق والمغرب أعوان وتباع وقد حذوا عامة أحدى نكالتهم بأبناء علي وفاطمة في كل مكان، وصنعوا بهم ما كان حليفاً أن يستأصمهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم.

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة به للحاكمين المسيطرين، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكسبوا للفرغم ويسلموا للسيف، ويقعدوا مع الخالفين. ولولا خصال فيهم لما كان هذا منهم.

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثته، ولا بد لها من نصب من الوراثه، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي، بن هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام

بعض الأخبار يفيد إن صح، وإن لم يصح ومن هذه الأخبار خبر إرواة الدين قالوا إن علماً جامل فاطمة فلم يبيع نيا بكر إلا بعد وفاتها

إن صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة، وهي اعتقاد الناس في تلك العصر أن القصية قصية الزهراء وإن الإمام يحملك فلا معضها، وإنه كان يرى أن الخلافة أحق بأن تطبه معرفة بحقه فإن لم تعرف له هذا الحق فما هو باحريض على الشغل بها واستدبير لطلبها وانسعى إليها

* * *

وهي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي إليه بالاً وهو في هذه البد أدل من كثير كالخبر الذي روى عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير

رووا أن الصديق رضي الله عنه قام على العبر يحطب الناس، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع لحاصرون معه صوتاً يحيلاً يهتف «ليس هذا محبر أبيك» أنزل عن منبر أبي

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن علي، ولما تبع الثامنة، فبشم الصديق وقال والحو يشيع في نفسه «ابن بنت رسول الله؟ صدقت والله ما كان لأبي منبر، وإنه لمنبر أمك»

وسمع علي بالخبر فأرسل إلى أبي بكر رسولاً يقول له «عمر ما كان من العلام، فإنه حدث» ولم تأمره.

قال أبو بكر «إني أعلم وما اتهمت أبا الحسن»

ولبست الزهراء ولا ريب هي ابنتي أموت العلام الصغير أن يقول هذا المقال ولكن لعل يفهم عن أمه في هذه السن ما يعبره عن الأمر والإحباء، ولعل الحسن كان قد سمع نقشاً يتكرر بين أبيه في هذا الأمر فوقر في نفسه أن يثور تلك لثورة الصغيرة، ثم نهى عنها فلم يعاودها

* * *

في خلائق السيدة عاتمة مدد صالح للثبات على الحق الذي يعتقد صاحبه،
أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رعم.

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفطورة على يقين انتدين،
وكانت ذات إرادة لا تهمل في حساب شأن من شئونها فظهر منها في الموقف
الغالية التي بعلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تمس في الحساب

كان من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبيها لأبيها
وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم، فلم يكن أحد إليهم من أن يعار لها إن
أسباط رسول الله يشبهون رسول الله

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبيين كان جسيب ما ورثته من خاتم
الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمحاورة، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من
أمها، أمها بنت خويلد الذي تصدى لعاهل اليمن عيرةً منه على الكعبة، وأبوه عم
ورقة بن نوفل الذي شغل بالدين في الحاهلية حتى فرغ له حياته، غير مدعو
ولا مأمور

* * *

ومن مطرة التدين في وريثة محمد وخديجة أنها شديدة التخرج^١ فيما اعتقدته
من أوامر الدين، حتى وهب أن أكل الطعام المطبوخ بوجوب الوضوء، يظهر ذلك
من حديث الحسن بن الحسن عن عاتمة حيث قالت: «بشر رسول الله ﷺ فأكل
عرف^٢ فجاء بلال بالآذان، فقام ليصلي، فأخذت بثوبه فقلب ما أبة ألا توضعاً
فقال: هم أتوضأ يا بنية؟ فقلت: نعم مست النار، فقال بي: أليس أطيب طعمكم
ما مست النار؟»

هي فيما تحمله تنخرج ولا تقرخص^٣ وتؤثر السد مع نفسها على الهواة

سها

(١) التخرج: تخرج، فعل عملاً يتخرج به من الحرج أي الإثم

(٢) عرف: العرق يفتح العين وتسكين الراء، العظم أخذ معظم لحمه، يكسر ويطح ويؤكل ما عليه من اللحم
الرفيق

(٣) تقرخص: الترخص في الأمر التمهيد والتيسير خلافاً للتشديد

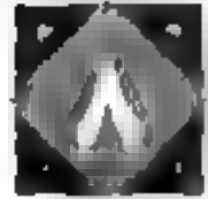
وقد ذكر غير واحد من الصحابة، وكررت السيدة عائشة، بها كانت أشبه الناس بمحمد في مشيها وحديثها وكلامها، ورايت عائشة عمالت ما رأيت انفصل من فاطمة غير أبيها، واستعربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأته تنكح ثم تصحت إلى حور رسول الله ﷺ هي مرضى وفاته، ثم علمت أنها صحكب لأبي سمعت من أبيها بها لاحقة به عما قريب.

أما بها كانت رضى الله عنها ذات إرادة لا تهمل، فقد بدا ذلك في أمر رواجها، رضى محاضنها لزوجها، ومحاضتها لأبي بكر وعمر، وفيما كان يتوجه على من مرضاتها بصدد المباينة قبل وفاتها.

وقد يكون من دلائل الإرادة هي المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام، وقد كان من عادة الرهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل، وأبها لا تعجز إلى الحديث فيما تعلم فضلاً عما لا تعلم، ولهذا محضرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد، ولم ترد عليه.

ولا ننسى أن الرهراء قد عوصرت^١ وهي في الثلاثين أو قبل الثلاثين، فإذا ظهر منها هذا الجهد وهذا النقيض وهذه العزة وهذه الإرادة وهي في تلك السن المبكرة بذلك ولا شك دليل على قوة كرامة يروح منها حين يفسر المعسرون جلأئق بيها وما عساهم قد استمدوه من هذا العيراث المكين.

* * *



الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة سايبة، يعيها نسب لأنها تعتمد عليه في مفاحرها كما تعتمد عليه في مصائرهما، فهو لدى يعين لها أصول عائلتها وأصول دوى الرئاسة فيها، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ربحسبونه على جريرة^(١)، ومن يحق بهم عاره ويبرأون منه أو يحلعونوه، والخليع عندهم من لا خلاق^(٢) له، فلا هو يبالي بشيء ولا يبالي به أحد، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته

إن الخليع عندهم هو المطيع عن نسبه

ولهذا حفظوا أنسابهم في احاطليه ما استطاعوا وحاءهم الخطأ فيها من تقدم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكناية والقراءة

وبعد الإسلام وحب حفظ الأنساب ولحأوا إبيه في تدوين الدواوين كما نحأوا إليه في ميادين القتال، فكلما حمى وطيس^(٣) القنال يودى في اقوم انسيبوا^(٤) يسحى المرتد من الهريمة التي يلحق عذرها به ويدريته ما بقيت لهم سيره في ذكره

* * *

وعظمت العناية خاصة بدرية النبي عليه السلام صوب للنسب الشريف، ودفعاً للأدعاء من طلاب الخلافة، فلم يقع نبس قط في نسب أبناء فاطمة مدى العصر الأول من الإسلام ولم ينهض منهم قط إمام مشكوك في نسبه على عهد الدولة الأموية، ولم يكن الشك في النسب طعب في دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية، ولم يرل أمرهم كذلك إلى أن قامت بهم دولة بالمعرب وسميت بالدولة الفاطمية اما قيل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يهاشونهم الحجة في حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب إليها رضي الله عنهم

(١) جريرة الذئب والجناية

(٢) لا خلاق له لا تصيب له من القير

(٣) وطيس، المعركة، تنبور من حديثه، وحى الوطيس اشتكت الحرب

من ذلك ما روى عن المأمون أنه قال يوماً لعلي بن موسى الرضا «يم تدعون هذا الأمر؟» قال بقرابة علي من رسول الله ﷺ وبقرابة فاطمة رضي الله عنها، فقال له المأمون، إن لم يكن هاهنا إلا القرابة فقد حلف رسول الله ﷺ من كان أقرب إليه من علي أو من في مثل قدره، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله ﷺ فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس علي في هذا لأمحق وهما حيان، فإن كان الأمر كذلك فإن علي قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان واستولى علي ما لا يجب به.

قال رواية هذا الحديث «فما أجابه عبي بن موسى بشيء».

وظاهر أن علي بن موسى قد روم الصمت هنا على حد قول أبي العلاء
تَلَوُوا بِأَطْلًا وَجَمَلُوا صَارِمًا
وَقَالُوا: صَدَقْنَا! فَقُلْنَا: نَعَمْ

* * *

والأما كان لحظة من أبناء علي وباطمة - وقد ررقوا للنس والعصبة أن يعجز في هذا المقام عن الكلام الذي يقال في الروايات على كلام المأمون، وأقربيه علي الإنسان أن علياً بن كان قد استولى على حقه وهم ورثته وإن كان قد استولى على غير حقه بهم أصحاب الحق، وقد سمع خلفاء بني العباس كلاماً كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين، وأيسره أن أحداً من حدود بني العباس في حفاة الحسن والحسين لم يطب لحلافه حين طلبه.

إلا أن دعوة الدولة العباسية إنما كسروا يدعون دعوى العلويين بعثل حجة المأمون ولا يتعرضون بصحة النسبة ولا يصرون على محاربة الولاء للمتنبين إلى الزهراء، إلا أن يدعوا عليه أنه حمى السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان.

قال المعتزلي كان بين شريك القاصي والربيع صاحب المهدي معارضة، فكان الربيع يحسن عليه المهدي فلا يلتفت إليه حتى رأى المهدي في منامه شريك القاصي مضروباً وحده عمه، فلم يستيقظ من نومه دعا الربيع وتحنن عليه رؤياه فقال يا مير المؤمنين، إن شريكاً مخالفاً لك، ورسول فاطمي محض قال المهدي علي به فلم يدخل عليه قال له يا شريك بلعني انت فاطمي قال شريك أعبد ما الله ما أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمي إلا أن تعني فاطمة بنت كسرى فإن ولكني أعني فاطمة بنت محمد ﷺ قال شريك أفتعنيها يا أمير المؤمنين؟ من المهدي معاد الله من عمادها تقول عمن يعنها؟ قال عليه بعه الله؟ من هالين هذا - وأشار إلى الربيع فإنه

بلغها، قال الربيع والله يا أمير المؤمنين ما ألعها فقال شريك يا مدجن عما ذكرت
 لسيده مناء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجلس الرجال؟ قال المهدي دعني من
 هذا فإنني رأيتك في منامي كأنك مصروف عني وقعاك لي وما ذك إلا بخلافك عني،
 ورأيت في منامي كأنني أقتر زديقا قال شريك إن رويك يا أمير المؤمنين ليست
 برويا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعبيده، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام
 وإن علامة الردفه بجنة حال وما هي؟ قال شرب الحمر والرشي هي الحكم ومهر
 البعي قال صدق والله يا أبا عبد الله أنت والله خير من اندي حمسني عليك»

* * *

وحدث مثل هذا في معرض كثيرة فوشى بأساس أنهم يوالون أبناء فاطمة
 هم يحسروا الخلاء على المساس بهم، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة.
 ثم هجعت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقه لها بدفعه مع
 الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة، فانتقلوا من المناقشة بالحجة في حق العم وابن
 النعم، واستواربة بين حق العباس عم النبي وحق علي ابن عمه، إلى إنكار النسب بتهمة،
 وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين في الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع
 اللبس في الكسب والألقاب، فطعنوا في انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة، وأدعوا
 عنهم ذلك المشهور الذي سبأني ذكره في القسم الثاني من الكتاب، واشترك في هذه
 العنادات "أساس من علماء السابيين شملهم غوية السياسة كما شملت غيرهم،
 وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العلم
 مثان هذا أن صاحب كتاب حمهره الأنساب، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم، لم
 يسلم من فتنة هذه الخواية، يقال وهو يتكلم عن درية إسماعيل بن جعفر الذي ينسب
 إليه الفاطميون ويصمون من أحل ذلك بالإسماعيلية «وَدَعَى عبيدالله القائم بالعقرب
 أنه أخو يحيى البعيسى هذا، وشهد له بذلك ربح من بني البعيسى وشهد له بذلك جعفر
 بن محمد بن الحسين بن أبي الحر علي بن محمد الشاعر بن علي بن إسماعيل بن جعفر
 ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل ابن جعفر، وكل هذه دعوى مفصصة
 لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين، وهذا كذب فاحش
 ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله إلا جنه»

* * *

(١) المصنفات العبدية مكاشفة العبد وإعلامه بالعرف على القتال

وبن حرم ابن حرم باندكر في هذا المعرض لأنه مثل لتفصيلين المتقابين
 عيب يوجب انقضاء وما يوجب الشك عاية الشك في مؤلف واحد وسنة واحد
 فعلم بن حرم بالأسانيد والأنساب معروفا، ولكنه في هذا المعرض خاصة
 عرضه للهوى كاشد ما يكون بهوى، حتى ليكون تكديبه لرواية داعية من دواعي
 احتمالها وقبولها

كان ابن حرم اموي عاليا في التشيع للأخوية، وكنت نولتهم في الأندلس على
 خطر من الدعوة الإسماعيلية، وبلغ من كراهته للإسماعيليين أنه تحوّل من
 المذهب لشيعة إلى المذهب الظاهري أي المذهب الذي أخذ بمذهب البصر
 ويرفض لتأويل، لأن مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الإمام
 بل قد يبع من كراهته القوم أنه لا يطبق أن يذكر الرحمن منهم بلقبه المتعارف
 عليه، فيلقبه بالمعصّر بدلاً من الحبيب، ولعله لم يصح كتبه في جمهرة أنساب
 العرب إلا ليثبت حق بني أمية في الخلافة، لأنهم من قريش، فصعد بحق الخلافة
 إلى جد الأمويين والهاشميين وقال في مقدمه كتبه «ومن العرف في علم النسب
 أن يعلم القراء أن الخلافة لا تحوّل إلا في ولد فهر بن مالك بن البصرين كندة، ولو
 وسع حرم هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحوله، وهذا لا يجوز أصلاً» وقد ترقى
 ابن حزم من الحديث عن الفاطميين إلى المناقشة في معنى الحديث القائل
 فاطمة سدة النساء وبه لا يعنى بها أفضل نساء العالمين

* * *

وبن سزة ابن حرم عن بعد الاعتراء، ولكننا نقول إن هو قد حنح به إلى
 قبول ما ليس بحجة في إثبات نسب أو دفع نسب، ولولا ذلك لوقف على الأقرب
 موقف التردد بين النفي والإثبات

وفيما يلي كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفاصيل ويسلف القول في
 تلخيصه فنقول إننا لا نرغم أسا وقفا على أدليل القاطع الذي يثبت نسب عميد
 الله رأس الدربة الفاطمية ولكننا لم نقف على دليل قاطع يعنى ذلك النسب،
 ووقف على شبهات كثيرة توجب الشك في مطامع الصاعدين، وهذه الشبهات في
 روايات بسابة كابن حرم بهوذج وما وقفنا عليه.

* * *



القسم الثاني

... والفاطميون

■ الفاطميون ...

■ النسب ...

■ الباطنية ...

■ الباطنية الفاطمية ...

■ حسن بن الصباح ...

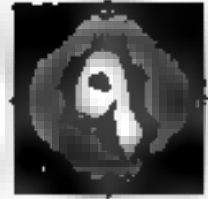
■ السرية الباطنية ...

■ بناة وهدامون .. ومهدومون ..

■ المعز لدين الله ...

■ حضارة متحضرة ...





الفاطميّون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميّون ولكن اسم الفاطميّين يطلق في تاريخ الدول على أبناء إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، ويسمون من أحسن هذا بالإسماعيليّين

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحياناً باسم ابن البيت، فلم يستأثر العباسيون بالخلافة غلب عليه اسم العلويّين

وجاء الفاطميّون ففصلوا الأسماء إلى الزهراء لأنهم يقيمون حقهم في الخلافة على أنهم أسباط النبي ﷺ، وأنهم أبناء النوصي على بن أبي طالب، ولكن العباسيين يمارعونهم دعوى الرضاية وينكرونها ويقولون إن الانتساب إلى النبي من جانب عمّه العباس أقرب من جانب علي بن عمه أبي طالب، ومن أحسن هذا يتسمى الفاطميّون بهذا الاسم؛ لأن بيوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون

أما نسب سم الإسماعيليّين عليهم فمرجعه اسمائهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقولهم إنه هو الإمام بعد أبيه، وبهذا الاسم يسميرون من أبناء السيدة فاطمة لأخريّين، وهم بزية موسى الكاظم، وهو الأحق بالإمامة في مذهب الإسماعيلين الإثني عشرين

وقد كان الإمام جعفر الصادق وصي بالإمامة بعده لانه لأكبر إسماعيل، ثم نجاه عنها ووصى بها لانه موسى الكاظم، وقيل في أسباب ذلك إنه علم أن إسماعيل يشرب الخمر وقيل بن إسماعيل مات في حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد إلى أخيه أما الإسماعيليّون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز لأن الولاية أمر من الله ينقله الإمام المعصوم والبدء لا يجوز على الله ويعنون بإبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذلك،

ومن الإسماعيليّين من نفى موت إسماعيل في حياة أبيه، ويقولون إنه شوهد بعد تاريخ الإشهاد على وفاته وبما أشهده أبوه على وفاته حوفاً عليه من الغيلة ومن تريض الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويّين المرشحين

للدعوة، واستدلوا على هذا بالشهاد على وفاته وتوقيع اشهود عليه، إذ لم نحر
إعادة نشر هذا الإشهاد لولا الصبغة ولتقية

واختلاف بين الإسماعيليين وبين سائر العاطميين قائم على مامة إسماعيل،
والإماميون الذين لا يسمون الإمامة لإسماعيل وذريته طوائف متعددة، أهمها
وأكبرها صائفة الإماميين المعروفين بالثني عشريين، لأنهم ينتهون بالإمامة
إلى محمد المنتظر بن الإمام حسن العسكري وعندهم أنه سيظهر في زمانه
الموعود، ولهذا يدعون بتحجيل فرجه كلما ذكروه

ويتفق الإماميون على اعتقادهم عصمة الإمام في بطلع شئون الإمامة، لأنه
مؤن السؤال والفتوى في أحكام الدين والدين، فلا يجوز الخطأ عليه في هذه
الأحكام

ويصنف الإسماعيليون إلى أسباب العصمة عقدة التأويل، فإن أحكام الدين
عندهم لها ظاهر وباطن ولا يعلم تأويلها غير الله والروحاني في العلم، والأئمة
هم الراسخون في العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤمنون

ولهذا يسمى الإسماعيليون بالباطنيين، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على
أحكام الدين وآيات الكتاب، بل يقولون إن كل موجود على الأرض له نظير في
بفلك الأعلى، وإن مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التي تحرى على
نظرها في السماء

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم الحزب ولرياسة والفلسفة على العموم،
وكان الإماميون من عهد على رضي الله عنه يؤمنون بإلهامه وطلاعه على أسرار
كتاب الحفر وما إليه من كتب النجوم، ولكن الأئمة الإسماعيليين أمعنوا في
ماسة هذه العلوم، لأنهم لاؤوا بالخفاء في عهد انتشارها وازدهارها، وأصبح
علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم الراسخ بشئون الإمامة في
الدين والدين، فإذا سأل انسانون عن أمر مسطور فأولى الناس بعلمه الإمام
المستور الذي يعلم مواضع السر واجهر ويتحين أوقات الفلك لإظهار ما خفى من
أمور الدعوة وأمور الإمامة، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد

ويخل عدد الأئمة نفسه في خصائص الأعداد، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب
النجوم سرًا خاصًا في عدد السبعة وعدد الاثنى عشر، ويستشهدون على ذلك بعدد
الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد صفحات النوح، كما يستشهدون عليه

بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بني إسرائيل، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتحجيم على عدد الأئمة، هو سبعة أم اثنا عشر ولكل منهم فيه كلام طويل

والإماميين مروق بسطورها بين النبي والإمام والحنة والنقيب، فالنبي يبعث في زمان بعد زمان والإمام قائم في كل زمان وقد يكون الإمام إماماً مستقراً فهو صاحب الحق في التوصية بخليفته من بعده أو إماماً مسبوفاً فهو يحمل أمانة الإمامة لصورة موقوفة، ثم يردّها إلى صاحبها ولا حي به في التوصية لغيره أما الحنة فهو لازم في الحفاء إذا كان الإمام طاهراً في العلانية لأن الإمام الظاهر عرصة بصوريات غالب معه من حنة يرجع إليها لاستبابة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة. أما إذا استتر الإمام فلا مد له من حنة طاهرة، وقد يسمون الإمام بالناطق أو بالصامت سراً لظهور ولغواء ولمحاضرة بالحكم والتأويل عنه

وما النقباء فالمالك أنهم دعة أو وكلاء ولا بد لهم من أئمة يرحضون إليهم في كل زمان

أعلنت وفاة إسماعيل في حياة أبيه كما تقدم، فاعتقدت الإمامة بعده لأبيه محمد، ورتحل محمد من الحذر إلى الرى، إذ لأنه لم ينطق مناسه عنه موسى الكاظم على رعاية العلويين، وإما لأنه أثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين، وقد لقب بالإمام المكنوم، لأنه لم يعلن دعوته وأخذ في بثها خفية وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر كلما تبهرت إليه العيون ولاحقته الظنون، ثم صاؤ المشرق كله بحلفائه فحجروا عبداً لله إلى المغرب وكان أول من نودى له بالحلافه الفاطمية.

وسيه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبداً لله بن أحمد بن إسماعيل الثاني بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق أما انقائلون بانسابه إلى ميمون القداح كما سيلي فهو في زعمهم محمد بن عبداً لله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق.

ويوهق المؤرخ الهندي «مأمور» بين الروايتين توفيقاً محتملاً حد الاحتمال فيقول إن محمداً المكنوم كان محفى نفسه ويتعاطى صب العيون مداراة لحقيقته

(١) كتاب الجدل والمناقشة في الخلفاء الفاطميين

polemics on the origin of the Fatim Caliphs

وإن اسم «ميمون» كان من الأسماء التي انتحها في حال استناره، وانقذاح هو لقب الطبيب الذي يعالج العيون.

ولا نهاية لروايات والتخرمجات التي تعلل سفره من المشرق إلى المغرب، فمن الرواة من يزعم أنه عمم بنامر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيماً بحوار حمص ورحل إلى مصر وهو يورى بالرحلة إلى النعم، ومن قائل إن بعض حلساء الخليفة العباسي ممن يدينون بالذهب الإسماعيلي سراً قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله عبادر إلى تصديره. ومن قائل إنه تلقى الإشارة من كبريت دعاته في المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل إلى المغرب ليمتولى الأمر بنفسه في هذه العنزة الحاسمة وتتفق الروايات على أنه حينما سافر إلى مصر وانتقل منها إلى المغرب كان مطرباً وكان على رأسه جعل^(١) لمر يأتي به حياً أو ميتاً حيث كان.

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة في المغرب إلى أبي عبدالله الصنعائي من صنعاء اليمن، واسمه الكامل هو لجس بن أحمد بن زكريا، وكان من ولاية الحسبة^(٢) في بغداد.

جاء في وصفه من كتاب «بيان المغرب في أخبار المغرب» لابن عذاري المراكشي وهو من أعداء الإسماعيليين: «فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وقصبة وجدل وعرفة يسمى أبا عبدالله الصنعائي فسار به عبدالله هدا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من حج تلك السنة من أهل المغرب ويدوق أخلاقهم ويطمع على مداهمهم وينحيل على نيل الملك بصعيف الحير ورأى في الموسم قوماً من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكذب عشرة رجال من قبيلة كتامة متعبن على شيخ منهم، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفته، وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه. ولم يزل يستدرجهم ويحلبهم بما أوى من فصل اللسان والعلم بالحدال إلى أن سبهم عقولهم بسحر يديه فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سألوه عن أمره وشأنه فقال لهم أنا رجل من أهل العراق، وكنت أخدم السلطان ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال الير فتركها وصرت أطلب المعيشة من المان احلال فلم

(١) جعل الجعل (بالضم) أجر العامل وما يعطاه المتعاقد يستعمل به على جهانه.

(٢) الحسبة المال الذي يأخذه محتسب البلد على المعوزات والمكيلات.

أر لذك وحها إلا تعليم الفرن للصبيان، فسألت أس يدأى ذاك تأتف حسناً فذكر لى بلاد مصر، فقالوا له ونحن سائررر إلى مصر وهى طريقك فكن فى صحبتنا إليها، ورغبوا منه فى ذلك، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم إلى مذهبهم ويلقى إليهم الشئ بعد الشئ إلى أن أشربت قلوبهم محبته فرغبوا منه أن يسير إلى بلادهم لتعلم صبيانهم، فاعتذر لهم بعد الشقة، وقال لهم إن وجدت بمصر حاجتى أقمت بها، وإلا فربما اصحبكم إلى القيروان، فلما وصوا إلى مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بعثته، ثم احتتمعوا به وسألوه فقال لهم لم أجد فى هذه البلاد ما أريد فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك «

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبد الله فى المغرب فإلى عبيده هنا هو الإشارة إلى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوباً لا طالباً وأن يكون له حصة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله إذا استطاع وقد سار أبى عبد الله لشيئ على هذا الأسلوب حتى تمكن من القنائر واستعمل إليه قبيلة كتامة القوية بعدها وشجاعة رجالها فأنحد الحو بعد البحيلة وحرر السبب وهرم دولة لأعالية عوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل إلى حدال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦)

كذلك بصول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدي وخططه التى رسمها لإقامة عرشه فى إفريقيا وبسط كلمته من ورئها لى الأقصار الإسلامية، فإن ملك المهدي فى المغرب قد دام أربعاً وعشرين سنة إلى أن تولى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المصور وخلف المصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين إلى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فعاءوها كعادتهم مطلوبين ممهداً لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح

* * *

إن تاريخ الدولة العاطمية حدير أن تفرد له اسجلات الصخام، لأنه تاريخ يحنى عن التوريج إذ كانت هذه الدولة نموذجاً يفاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من انغير والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة

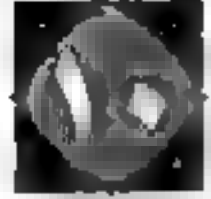
فهي الدولة التي قامت بين ست دور أو أكثر من ست دور إسلامية واجيبية تحاربها وتحشى عاقبة قيامها، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على إنكارها، واعتمدت في الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها في تلك الوسائل إلى هذا القرن العشرين. فمن تلك الوسائل فن التحدثين و «الطابور الخامس» كما يسمى في العصر الحديث، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والفن في نشر الدعوة بظهوره والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وتدريب الأذوار المنظمة لإيقاد سياسة بعد أخرى، ومنها المؤكث والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية وكانت تنابر على الدعوة ولا تهتم معها أركان البيت من تشييد المدن وتنظيم السواوير وترتيب الرتب وتدريب الجنود وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات وترويضها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمجالس المحاضرة والمناظرة في أيام معدودة يشهد بها الرجال والنساء

* * *

قيام الدولة العاطمية في الواقع بموج قيام الدور بالحول وإحياء ولو اسفعى انما ربح بدولة واحدة عن دور كثيرة كانت هذه الدولة حسبه من عبره وأصواره وبديرياته ومصادفاته وسباقه في صدد لإفصاة في هذه الدراسة بحفصياتها وفروعها، وكما بطرق منها في هذه العجالة ما به علاقة بالانتساب إلى الزهراء وما له علاقة بأثرها الباقية في هذا البلد لأنه البلد الذي شهد من الدولة العاطمية أهم أدوارها وأهم عهودها وكانت مخلفاتها منه أبقى المخلفات في تاريخها الحديث

* * *

النسب



الدعوى المنتظرة هي أقوى الدعوى، وهي كذلك - ومن أجل ذلك - أضعفها وأولاهما بالتشكك والمراجعة.

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تملبها البواعث النفسية أو النوعية السياسية والاجتماعية، وهي قوية لأنها لا تأسى عقوا ولا يكتفى لمدعوى فيها بإيدئها وترك السامعين وشأنهم في قبولها أو الإعراض عنها، بل هم يدعونها ويحتالون على إيرادها مورد الصدق وتمثيلها في صورة الكلام لسائق المحقق، ثم يكررونها ويحورون في تكريرها ويتحدثون الفرص لشرف في سلطان الإصغاء إليها والرغبة في إثباتها

وإذا كانت البواعث التي تملبها متعددة متحدة كان ذلك خليقاً أن يريدها قوة على قوة والخاصة على إلحاح، فهي تنوارد من جهات كثيرة وترجع إلى الظهور كرة بعد أخرى كلما خيف عليها أن تضعف، وكلما تعاظم الرجاء في التحدث بها والالتفات إليها.

إن الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا

وهي من أجل هذا بعيدة ضعيفة متبهمة

لأن البواعث التي تملبها تريب السامع حين يكشف له، وقد يكون الإلحاح فيها مشككاً لمن يسمعها وكاشفاً للحرص ولهوى من ورائها.

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أخرى أن يسوق التساقض والاختلاط إلى الروايات والأقوال، فلا يصدق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها، ومن لم يكن منهم مخترعاً لروايته لم يجهد ذهنه في التوفيق بين القائض والتقريب بين الأسانيد، فتصعب الدعوى بالصعاب من جراء تعدد البواعث كما تأنيها القوة ولمثابرة لهذا السبب، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك

« * »

وقد كثر اتهام الفاطميين في سبهم دعوى منطردة، وكانت البواعث إليها
معددة متجذدة، فلا جرم تكون في وقت واحد أقوى الدعوات، ثم لا تلبث أن تعود
أصناف الدعوات

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون في طلبها على السب

وكانوا يهودون بمساعيهم في طلب الخلافة خصوماً كثيرين يملكون الدول في
المشرق والمغرب ولا يرمدون انزوى عما ملكوه أو لا يريدون بعبارة أخرى أن
يسلموا للفاطميين صحة نسب الذي يعتمدون عليه

فلم يكن أقرب إلى الدهر من مهاجمهم في سبهم وتحريضهم من الحجة التي
يؤيدون بها مسعاهم، هذه هي الدعوى للمنظرة التي تعدد بواعثها في المشرق
والمغرب وتوافقت الأغراض على بروحها وتثبيتها بين الخائعين على عروشهم
من نسب الفاطميين وكلهم رؤى سلطان ودور برعة واعتد، ومن ورائهم من
يرعبون في يقائهم أو يثقلون سعواهم بالنصديق والإيمان

كان الفاطميون يطلبون لخالفة ويعتمدون في طلبها على انسابهم إلى نبي
ﷺ، وكان هذا السب حجة معتمده لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول
الإسلامية الذين يسرى بينهم دعوى أن انبثت، غير مستثنى منهم أتباع الدولة
العباسية في ذلك العهد على الخصوص وهو عهد انقراض والأدبار لدى يكثر فيه
صلاب الروايات أو طلاب العدل بالحق وبالباطل وعلى الانصاف الواضح أو على
الجور الصراح

كان مصير الخلافة إلى الفاطميين بديراً بروايات عروش كثيرة، منها عروش
العباسيين في بغداد والإخشيديين في مصر والأعاليه في إفريقية الشمالية
والأمويين في الأندلس، والأمراء الصغار بمشعر بمشعر في هذه الرقعة هنا وهناك ممن
يطلب لهم القرار على ما هم فيه ولا يطيب لهم التبدل والانسحاب

وكان هؤلاء يمالكون عرياء عن أهل البيت ما عدا عباسيين، ولكن العباسيين
في ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائعين من نسب الفاطميين، يعد أن كانت
دعوة أهل البيت تشعلهم أجمعين مد ثلاثة قرون

عندما ضعفت دولة بني أمية قويت دعوة آل البيت التي كان يقوم بها
العباسيون والعباسيون

ولكن العباسيين أخذوا برمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين أنهم كانوا يدعون إلى خلافة العلويين أبناء فاطمة وعلى أحق أساس باسم آل البيت في رأى أتباع الدولة الجديدة. وبلغ من إيمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن حلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين، كم فعز الرشيد والأمير ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لحا الأئمة العلويون إلى لاخفاء وشاعت يومئذ العقيدة في الإمام المستور، ثم شاعت الدعوة إلى العلويين باسم الفاضلين لأنها أقرب الدعاوات إلى يدوة محمد عليه السلام فقد يقال إن العباسيين أبناء العباس عم النبي وإن العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب. أما الأبناء إلى فاطمة الزهراء، فهو انضمام إلى بيت النبي نفسه، وليس إلى الأعمام ولا أبناء الأعمام

في أوائل الدولة العباسية، كانت دعوة آل البيت تسمى العلويين والعباسيين، وكان الخلاف يسيرا بين الفريقين على أمر التوفيق بينهما بعد حين وكانت قوة لدولة في شأنها تصمد لهذا الخلاف الذي كان أمره ولم يبلغ أشده في أول عهده، وكان يكفى أن يقف عند اشتداده إن وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تصعصعت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها وراعون في روالها، وكثر كذلك شهادون من آل البيت أبناء على وفاطمة، وراا عنها عطف العاطفين عليها لقريتها من بيت النبوة، وتحول عطفهم إلى الشهداء المظلومين المشردين في أرجاء البلاد وأصبح شر هم الذي يطر به أنه يضعفهم مددا لهم من أمداد العطف والولاء وأصبحت دعوة «الفاطميين» وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون لأن العباسيين هذا هم لخصوم المجاسيون على انظلم واليكاال واختلال حبل الأمور

ومن الفاطميين هؤلاء يأتي الخطر الأكبر على بنى العباس، ومن نسبتهم إلى فاطمة الزهراء تأتي اختيارهم بحق الخلافة، وبهذا الحق يطالبون النصفة للشهداء والمضطهدين، هأى شيء أقرب إلى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر ببتكار هذا النسب ومن حصر الولاء لأهل البيت في يقتضين بالأمر من بنى العباس؟

وقد أنكر العباسيون نسب العاطميين ورغم أنهم ينتسبون إلى ميمون
القجاح ابن ديصان القنوي الفاضل بالإنه، وتوقف المهمة كل دعم على
العاطميين وهم صنف ينتمون إلى كل مذهب وبطلة ، منهم كما أسلفنا
الإخشيدون والأعالية والأمويون والأندلسيون ورد عليهم من كان تابعاً
لعاطميين ثم تحصر^(١) المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة ويعص رؤساء
العشائر في الجزيرة العربية، بل قيل إن أساساً من العلويين شهدوا عليهم
بإدعائهم انتساب في على وفاطمة عليهم السلام، ونسب إلى الشريف أبي
الحسين محمد بن على المشهور بأخي محسن الدمشقي أنه كتب رسالة في تعييد
دعواهم ينكرها المقرري ويمنعها إلى عبد الله بن رزام

وبروي عن سبب نشاط العدر باغته إلى كتابه الإشهاد ببطالان نسب العاطميين
أنه سمع أحياناً نظمها الشريف الرضي ولحن فيها

ما مقامى عسى الهوان وعبدى

مقول صارم وانف حسمى

ليس البدل في بلاد الأعاسى

وبمصر الخليفة العلوى

من أموه نبي ومولاه مولا

ي إذ مقامى اليعيد القصى

بف عراقى يعرقه سيد الف

من جملتها محمد وعلى

ن ذلى بسلك الجرد عر

وأوامسى^(٢) يذ لك الربيع رى

فأرسل إلى أبيه الشريف أبي أحمد الموسوى يقول إنك قد عرفت منزلتك وما
وما تقدم لك في الدولة من مواقف محمود ولا يجوز أن تكون أنت عسى خليفة

(١) مجلة بكسر الهمزة: الدعوى وما نطقتة أو ما عينك ومذهبك

(٢) محل محل الشيء طلبه بحبة وتكلف

(٣) راعى الأوام سنة العطش

نرصاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا تراه عليه من لا اعتداد بك لصديق الحوالة منك وقد بلغنا أنه قال شعرا - هو هذه الأبيات - هي لب شعري على أي مقام دل أقام وهو باظر في النقبة نقابة الأشراف والحج، وهما من أشرف لأعمال ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر فأمره أن يكتب يخصه إلى القادر بالاعتماد وانكار نسب الحاكم بأمر الله، فأبى، فقال له أبوه «أتكذبني هي قولتي؟» فقال «كلا ما أكذبك، ولكني أخاف من الديلم ومن الدعة في البلاء» فقال له أبوه «أتخاف من هو بعيد عنك وتسخط من هو قريب منك وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك؟» وعصب أبوه وحلف لا يقيم معه في بلد، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى أنه لم يقل تلك الأبيات، وكتب بخطه هي محصر الأفكار وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحصر أن المهدي لفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله، وأن اسمه الصحيح «سعيد بن أحمد بن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان».

وقد اختلفوا في نسبه تارة إلى المحوس ونارة إلى اليهود واختلفوا في احد الذي كان محرسياً أو يهودياً ف قيل إن عبيد الله كان ابن جنداء يهودى مات عن روحه فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتسمى عبيد الله ، وقيل إن عبيد الله قتل في سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعي) فسماه عبيد الله وباعه بالخلافة، وفيه إن أمته للإمام جعفر الصادق علق بها يهودى مولد منه عبيد الله وشأ في بنت الإمام متمياً إلى أهل البيت

وقد كانت لهجة البياى العباسى غاية في العنف تنم على العيظ وتحلو مع الدليل، ومنه «إن هذا اساحم بمصر هو منصور بن نزار المقلب بالحاكم حكم الله عليه بأبواب والدمار ابن سعد بن إسماعيل بن محمد ابن سعيد لا أسعده الله - وإن من قدمه من سلفه الارحاس الأنحاس عليهم لعنة الله ولعنه اللاعنين خوارج لا نسب لهم في ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه، وإن ما ادعوه من الانقسام إليه زور وباطل، وإن هذا الناحم في مصر هو وسلفه كفار فساق ملحدون معطلون، وللإسلام حادون، أباحوا العروج وأحلوا الخمر وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية.»

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم في العنف ونسبهم فقال صاحب كتاب الروصتين في أخبار الدرافين عن الفاطميين إن المعروف عنهم أنهم «بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من سل القداح العلحد المجوسى، وقيل كان والد عبيد هذا يهوديًا من أهل سلمية من بلاد الشام وكان حدادًا، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم أنه علوى فاطمى، ثم تفرقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى، وكان رديفًا خبيثًا عدوًا للإسلام مظهرًا ياتقشع مستترًا به حريصًا على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة، وكان مصده إعدامهم من الوجود ليبقى العالم كاليهاثم فيتمكن من إفساد عقائدهم ونشأب ديبه على ذلك سطوين يجهرون به إذا أمكنهم القرصة وإلا أسروه، والدعاة مبيثور لهم فى البلاد، وبقي هذا الغلاء على الإسلام من أول دولهم إلى آخرها، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الحبال الساكنين بثغور الشام وأخذت الإفرنج أكثر البلاد بالشتم والجريرة إلى أن من الله على المسميين بظهور البت الأديكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأرأوا هذه الدولة هـ.

ومن اعتدل من المؤرخين فى الإنكار والسباب، كابن خلكان، أيد «التهمة بالقصص التى تؤكدوا سو أنها ثبتت كالفصة التى اشتهرت عن سيف المعر ودهيه، وإن ابن طباطبا سأل المعر عند وصوله إلى مصر عن نسبه فس سيفه، فقال «هه نسبى» ثم نشر عليهم الذهب وقال «وهذا حصبى» وقنع منه الحاصرون بما سمعوه وشهدوه

وظاهر يعبر عناء أن الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية لأن الدين وتعموها من الأشراف العارمين بالأنساب قد أكرهوا على توقيدها، ومن وقعها، غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن حد منهم حجه فى مسائل النسب والتاريخ وقد أصعبوا دعواهم عامة الصعف بنسبة حد الفاطميين إلى ديسان اثنوى وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب إلى التوفيق بين المسيحية والروثنية قبل البعثة الإسلامية بنحو أربعة قرون، ولم يظهر أحديهما الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون جننا يديس وجننا بزدان

أو ديدان ولا شأن له بنشأة الثغوية ولا بالدعوة إليها في قول حد من أوثق المؤرخين، وإنما قيل عنه إنه كان على ثروة كبيرة وعاور إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على الثورة في عهد الخليفة المأمون

وإدعاء الموقعين للوثيقة أن خلفاء العاصميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقدّم عليه دليل قط من وفائع التاريخ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بروحة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح في قصور الخلفاء من المسرى واقتناء الإماء، وقد خولط الحاكم بأمر الله في عقله فجع إلى التمسك في الطعام وحرم المباح منه بدلاً من إباحة الحرام

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة لتبشيع والتبشيع في سببه الفاطميين تارة إلى المحوس وتارة إلى اليهود، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم في الخلافة حتى تسقط دعواهم في الإسلام وترجع بسبهم إلى بُعد الملل عن الديانة الإسلامية في عرف ذلك العصر على الخصوص ثم يقان عنهم ما لا يقال في جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات

واقصة التي رويت عن سيف المعز وذهبه عنية عن التكديف لأن ابن طباطبا الذي قيل إنه سأل المعز عن سببه عند وصوله إلى مصر قد ترقى قبل قدوم المعز إليها بربيع عشرة سنة، وابن خلكان صاحب القصة هو الذي ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بن حال بعلة أمير آخر مع أن اسم «المعز» هو ندى دار عليه مثل السيف والذهب المشهور، وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على السب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه، فكل جواب أيسر وأرفع من الجواب الذي وضعوه على لسان المعز لدين الله ولا معنى له إلا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى في الخلافة

وقد روى ابن خلكان أيضاً أن العزيز بالله سعد المبرق فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات

(١) التمسك سبب الرخص. شاذق في كلامه وسطع وميسه

أنا سمعنا سباً منكرا
 ينقل على المنبر في الجامع
 أن كفى قبعت تدعى صادقاً
 فنادكر أيا بعد الأب الرابع
 ون قوم تحقيق ما قلته
 فانسب لينا نفسك كالطائع
 أو قمع الانساب مستورة
 وتدخل بنا في النسب الواسع
 فإن انساب يسرى هاشم
 يفصر عنها طمع الطامع

فإن صحت هذه الرواية فالتحدى فيها بإظهار النسب قبل الأب الرابع
 صادر من خبير بموضع الخلاف لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق
 التاريخ لدى عمد فيه الأئمة العلويون إلى الاختفاء والسكر بأسماء غير
 أسمائهم وانتفاء الدعاة دون غيرهم من استمرار دريتهم وأولياء عهدهم
 وإيف العحيب في الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذي يتحداه المنحدي بإظهار
 نسب كسب «الطبع» العدسي، مع أن الطائع نفسه قد عم بكتبة وريره
 عهد الدولة إلى العزيز وحمله الهدايا إليه واعترافه بنسبه وإيه تلقى منه
 الشكر «الإخلاص» في ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته بحو إمامته
 ومحبيه لأبيه الطاهرين»

وقد تواتر أن عهد الدولة هم بالخطبة في بغداد للخلفاء الفاطميين فرد أحد
 الدهنة من أصحابه عن هذا الحرم، وقد له «إيك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك
 أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحسن دمه، ولكنك إذا أقمت
 علويًا في الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافة، فلو أمرهم
 بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك»

وقد أشار صاحب «لروصين في أخبار الدولتين» إلى قيام الدولة الأيوبية
 بعد الدولة الفاطمية، ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبي أدن بالخطبة في يوم

الجمعة بحليفة العاطمي، وإنه إنما حوّل الخطبة إلى بحليفة العباسي بعد وفاة العاصد آخر خلفاء العاطميين وبه أطاع في ذلك أمر رئيسه نور الدين بن رمكي، ولم يكن لصحة النسب أو بطلانه شأن في هذا التعبير، ومرجعه الأهم إلى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة، إذ كان الأيوبيون سذجين يشتدون في اتباع مذهب أهل السنة ورادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والبراع، وكان الديلم شيعيين والكرد سذجين، وقد تفقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى إلى الألقاب فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب من الدولة وركن الدولة وعصا الدولة وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصالح الدين

ومما سلاحظ أن بعض المؤرخين محللون على المعنى في كتابتهم عن الدعوة العاطمية ودعائها كلف خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية فأبو المعالي الفارسي يهون في كتابه «بيان الأدبار» أن منصور القذاح من عصره، وجملة المؤرخين يقولون عنه إنه من فارس، وكل منهم يحيل إلى المكان البعيد حيث يعذر عليه تحقيق الرواية بالسند اصادق في مكان قريب

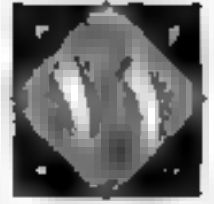
ومع من أجل هذا قول ابن خلدون إن شهادة الشاهدين بالطعن في نسب القوم كانت على السماع، وأصاب بمقريزي حين قال عن الغويين إنهم «على عادة من وهور الهند وحلال القدر عبد السبعة مما الحامل لشيعتهم على الأعراض عنهم والدعاء لابن محوسى أو لابن نهودي؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية في الجهل والسخف»

والمقريزي وابن خلدون قد أرحا للمهدي العاطمي بعد عهده برمن طويل - وهما سنان غير متشيعين - ولكنهما نظرنا في شطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدنا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح، وقد عاصر المهدي مؤرخ أندلسي هو غريب بن سعد - وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح في نسب الرحمن ولم يسمع من أمراء أمة في الأندلس قدحاً فيه

وعاية ما ينتهي إليه في هذه المسألة - مسألة السب الفاطمي - أن المطاعين
 لم تأسسهم بدلائل واحد يعرض عليه، وأن مطردة عبدة الله عند اتحافه إلى معرب
 دليل على أن العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوتهم، وإن مديعة الشيعة
 لأبائهم - سواء شيعية لديهم في بغداد أو شيعية الريديين خاصة في اليمن -
 ترجح صدق انتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء إن لم تؤكد كل التوكيد، وقد
 كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا في صدر هذا الفصل أصعب لدعوات
 لأسس الدعوى المنتظرة التي يملئها البوعث المتعددة فلا يتحيل أحد أن يتصدى
 لفاضليين لطب الخلافة يحق ذلك السب ثم لا يتعرضوا للإكراه عليهم ما وسع
 المنكرين أن يكرهه

* * *

الباطنية



كان المنفعون بالطعن في نسب الفاطميين كثيرين متعددين، كلهم كما تقدم من دوى السلطان أو أتباع دوى السلطان، وقد استعاضوا بالحوار والحيلة في ترويح مطاعهم واختراع أقويلهم فاستعاضوا إليهم في البلاد الإسلامية من لا مصلحة له في مطاعهم، ولكننا بحسب - بعد مراعاة أخبار العصر وجوده - أن المطاع في النسب لم تكسب على المصدقين إلا القليل الذين يظرون إلى الأمر كله بعير أكثر. أو يكثر ثور له ولكنهم عبال على حدوث لا يقدمون ولا يؤخرون أم الأثر البالغ في تنفير الناس من الفاطميين ربما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية ودعاء الخصوم أن الباطنيين جميعا إسماعيليون ممن ينتمون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جد القائم بالدعوة الفاطمية

فمن زمن والناس في المشرق يفهمون أن الإسماعيلية هي كلمة مرادفة للباطنية ويلصقون بالإسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوئ والمكرات، ومن العصائح والقبائح وهي في الواقع كثيرة منفردة لا تحتاج إلى جهد كبير في التنفير والتشهير

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين أن بعض المجاهرين بالإباحت والاحترء على مناسك الدين الإسلامي كالدقراطية في البحرين كانوا يعلنون التشيع للإسماعيليين، أو بعبارة أخرى للفاطميين، فوفر في لأذهان أن دعاة الإسماعيلية جميعا إسماعيليون، وأن الباطنية هي إخفاء المكرات وإعلان التشيع للتغريب والتصليل

وقد قيل إن رجلا من دعاة الباطنية يدعى «علي بن فضل» ادعى النبوة وإباح جميع المحرمات وقال شاعره في روايات مخرقة

خدي السدف يا هذه والسعبي

وغمبي هزايك ثم اطربني

برالى نبيى نبيى هاشم
 وهذا نبيى نبيى يعقوب
 أحل البينات مع الأمها
 ت، ومن فضله زاد حل الصبي
 وقد حط عنا هروض الصلا
 ة وحط الصيام قلم يتعي
 إذا الخاس صلوا فلا تنهضى
 وإن صوموا فكلى واشمري
 ولا تطعمى السحى عند الصفا
 ولا رورة القبر فى يثرب
 ولا تصنعى نفسك المعرس
 ين من الأقربين أو الاجنبى
 فكيف حلت لهذا الخ
 بب وصبرت محرمة للأب
 اليس الفراس لمن ربه
 ورؤاه فى الرمن المجدب

وقيل على الحملة إن الباطنيين يظهرون الإسلام ليكيدوا له ويدسُّوا عقائد
 الشرك والضلال بين أهله، وإبهم هي الأصغر محوس منصور على بعض شديد
 للعرب وسبهم لم يقدروا على هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة، فاحتالوا
 على مآربهم بالدسيسة والمكيدة وأنشأوا بحسبهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم
 شيئاً شيئاً من عقائدهم إلى لتعطيل وإباحة والكفر بالبعث والمعد وإنكار
 لفرائض والعقائد والأديان

قالوا ومن الإسماعيلية خاصة بثبوت دعوتهم على درحات ويأخذون
 المراتيق والأيمان على مريد بهم ألا يقشوا لهم سراً ولا يظاهروا عندهم أحداً ثم
 يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المريد من العزم على أبدى الأنعة المعصومين،

ثم تلقين بعض الرموز التي تروق المرید وتسوقه إلى المرید من الأسرار، ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها، ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ضواهر معانيها ثم الخوض في المذاهب الفلسفية التي تنسب في لدرجه التاسعة من درجات الكشف والزلفى إلى بآئنه الإمام على مذهب الطول، وأنه هو روح الله حلت في حشد إنسان، ولعمرى ماذا في وسع عشرة أو عشرين من «الوصلين» إلى هذه الدرحة في أرس العمر أن يصنعوه حين يعلمون سراً بإباحة الشهوات ورفض الأديان»^{١٤}

وأما الباحثين في هذه الأغفر والإشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبر وروايات وراحوا بعثون أنفسهم في جمع هذه الأخبار فإذا هي تنبأقص ولا تستقر على قرر.

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التي يبدأ البحث الصحيح فيها وينتهي في السريرة الإنسانية وما يحور فيها وما لا يحور وما يجب أن يرخص بداهة، فلا أصول لبحث فيه بعد ذلك، إلا لتطبيق أصول البف واتحاد الأمثله على حقائق اتاريخ وأبصله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات.

فمن الطريف حقاً أن يقيد المرید وبالأيمان والاقسام ليكتموا السر ثم يأتي السر المكتوم فإذا هو سر بجلهم من جميع تلك الأيمان والاقسام على سبيل اليقين ولا تضمن بقلهم إلى يقين جديد!

وأطرف منه أن يقال عن رحب إنه معطل مكر بلمعاد مكر للأديان، مكر بلوعود الإلهية ثم يقال عنه إن كراهة دين من الأديان تبعثه إلى انجهاً سراً وعلاسية والاسماسة في الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملاً في يوم من الأيام يرزق فيه هذا الدين ويشهد هو رواله أو لا يشهد بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون

إنما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لفقيام دولة من أبناء دينه، فأما المكر المعطل لكل عقيدة فس يبقى في نفسه من الحساسية الروحية ما يهز عليه المشقة والخطر ويعيمه ويقعده كراهة لأن دين قومه وغيره من الأديان عمده سواء

كان تصديق هذه مفهوماً على القرون الوسطى، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون أن
انكار مكفر في سبيل الشيطان وأنه يرى ابشطن بعينه ويسمع وسوسه بأذنه
ويسومه ويشارطه ويبيعه روحه ويأخذ منه السطوة والفتنة بدلاً من معيم
السماء، وكانوا يومئذ يقوون عن أناس بأعبائهم بهم على صلة بالشيطان
وإنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطعوا منه على أسرار النجوم والوجود
واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة اغبيور في حساب المؤمنين

أما في عصرنا هذا فمن الحسير أن ينحيز الإنسان ملحدًا ينكر كل شيء
ويتحرر لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شيء من الأشياء كأننا ما كان، إلا أن
يكون ذلك الشيء سطوة يطلبها لنفسه في حياته أو في بعده، ولا يعقر حسب
أنه يدرج بالاتباع والمريدين من انحراف حقائقه إلى لعلم بتلك الحقيقة
والاطلاع على دسائسه وعوايته التي يليسها على بناس بتلبس من الغار
العقائد وأسرار الديانات.

وقد شعلت طائفة المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وشباههم
في اليمن وفارس واعدتهم النسبة إلى الإسماعيلية في المغرب مع مجاهدينهم
بالمعاصي واحمرتهم على مناسك الحج وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء،
فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والإسماعيليين
حد تحتمل البحث، ويؤدي البحث فيها إلى ثبوت العلاقة بين هؤلاء هؤلاء

وأعرب الغراف أن أحداً من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل لماذا لم
يظهر في المغرب حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها أساس من دعاء لإباحية
والعصيان، كالذين ظهروا في البحرين واليمن وفارس وبعض بقاع الشام؟

فمن سطرة سريعة بمكر أن يتبين الناظر في التاريخ أن الانتماء إلى
الإسماعيليين مفهوم من أساس يعمرون في بلاد الدولة العباسية ويعلمون الخروج
عليها مهم في حاجة إلى صلصنة مشروع بقومهم به سطوتها المخلوع،
واسمؤهم إلى الغاصيين أو الإسماعيليين هو اسند الذي يركنون إليه في
محرمة الدولة العباسية وإنكار حقها في الطاعة والولاء ولو كان بشر الدعوة
الفاطمية يتولاه دعاء العصيان والمعاصي لكان أولى الميلاد أن تظهر فيه طوائف
الإباحية في بلاد المغرب حيث كان انعم لحلافه لفاطميين

ولقد حدث فعلاً أن القرومصة خلعوا البيعة الفاصمية ورجعوا إلى الدعاء على
المباير باسم الخليفة العباسي حين وقعت النبوة^(١) بينهم وبين الخليفة الفاطمي
في القاهرة، وسؤل هم للطمع أنهم قادرين على فتح مصر بعد أن جربوا موتهم
وحيلتهم في فتح أطراف من بلاد الشام

وقد يكون أعرب من هذا أن يقال من جهة إن الإباحة هي الدرجة السابعة أو
الثامنة التي يصل إليها المريد المرقى في كشف الحجب وعلم الأسرار، ثم يقال
من جهة أخرى إن هذه الإباحة سر مباح في الصريق يعكف عليه العزمن جهرة
ويردده الشعراء ويتغنّى به القيان

ثم ينقص علم النفس وعلم التاريخ في بحث من البحوث كما انفصلا في
بحث قصبة الإسماعيلية والبطنية، ولهذا كثر فيه التخييل وقل فيه الثبوت
والوصوح، وبحسب أن محنة التاريخ هب أصعب من كل محنة لأن المؤرخ هب
يعمل عملياً ولا يستغل بعض واحد يعمل لمعرفة الحقيقة ويعمل لاستخلاصها
من الأباطيل التي تحجبها عن عمد وتدير، وواحد من هذين العاملين كثير على
مؤرخي الورق والحروف

إننا عرفنا ألواناً من النظم السرية التي اصطلحت عليها الجماعات المتسيرة
في العصور القديمة، وبعضها يسمى بتخذله أعراف سياسية كالجماعات
الأورمية والجماعات الفيتشاعورية، ولا بدري الآن كيف تكشف هذه النظم
المرعومة بل لا بدري هل هي في الحق كانت موحودة متبعة أو هي أوهم
ونخمينات من وهي الاستطلاع والاستبصار

ولكنما إذا سمعنا عن نظم سرية في عصور التاريخ القديم فلا معنى في
هذه الحالة للإحالة على القدم أو للحيث في الطيور إذ يحق لنا في هذه الحالة
أن نسأل عن المريد الذي تدرج في مراتب لباطنية حتى وصل إلى قيادة الدعوة
ثم خابها رافشي أسرارها، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذي تعقب الجماعة
بعيون وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق
المنطوية التي نشرت بعد العثور عليها في إبانها أو بعد انقضاء زمانها وليس
سكراً فيما اطلعنا عليه من أخبار لباطنية أن أخذت تحدث عن مريد واحد صمد

(١) النبوة الفاطمية والبيعت

على مراتبها من درجه التلمذ المبدئ إلى درجه الحجة لمصنع على جميع حسابها، ولا أن أوراقها لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأديعت في أوانها أو بعد أوانها، بل رعم الرواة أن الذي قصص الجماعة وأكر على جعفر الصادق نفسه دعواه، قبل دعوى إسماعيل أمه وخلعاه، هو عبد الله بن ميمون الفداح، ومن هو عبد الله بن ميمون الفداح؟ هو واصع انصام كله ومردب لدرجات كلها ومصطنع التخفى والتكر ليورغ مقصده من الدعوة باسم سماعين بن جعفر الصادق حد الإماميين أجمعين

عبدالله هذا هو الذي قال فيما زعم الرواة

هات اسقني لخمرة يا سبير

فلبس عني أنقى أنقى أنقى

أما ترى الشيعة في فنية

يفررها عن دينها جعفر

قد كنت مفروا به برهة

ثم بدا لي خبير يسير

وتم تكفه قطعة واحدة بمطامها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى بقول فيها

مشيت إلى جعفر حقية

فالقيت خادعا يخلب

يحر الهلاء إلى نفسه

وكل إلى حيله يجيب

فلو كان أمركم صادقا

لما ظل مقتولكم يسحب

ولا غش منكم «عنيق» ولا

سما «عمر» فوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أبناء ائمتي من آل هاشمة وعلى، سرا محولا بوجه الشك إن لم تجرم ماسقين من بطلان الخبر وتنهيه وحير من هذه الأسرار وغيرها

أنه عدل عن الدعوة لإسماعيلية فيما نواترت به أخباره في المشرق والمغرب، فعما
زيت دعوة الفداح إلى ختام حياته قدمة على امبابعة باخلافة لإسماعيل
وأبعاء إسماعيل

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر
منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بعقل أو الواقع صدمة توجب الشك إن لم
يحرم بالبقين من بطلان الخبر وتلقيه وخبر من هذه «الورقيات والنصيات» أن
نظمت إلى مقياس واحد لا شهة عليه من اهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار
مما يوافق أو لا يوافق عسى أن نخلص منها إلى قول صحيح أو نقد صحيح

ذلك المقاس هو الحالة النفسية الاجتماعية التي كانت شائعة في العالم
الإسلامي من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة، ونخص منها بالنظر ما
يرجع إلى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكنم وإمداره من جهة أخرى.

فالدولة العباسية دخلت في دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث
لهجرة فاختلت قواعد الحكم وصاعت الثقة في الحكومة القائمة وكثر
المفصلون عن الدولة والمتفصرون عليها، وكان الدين هو حجة المطالبين
بالحكم وحجة الخارحين عليه فمن خرج عسى بنى العباس أنكر عليهم حق
الخلافة باسم المبي مع وجود عترة النبي من أبداء على وفاطمة، ومن اعترف
لسى العباس بالحق الشرعى في الخلافة زعم أن الحكم في دولتهم بغيرهم من
وراء الترت أو اسديم أو كتب الدواوين الذين يتواصلون مع الولاة على انتهاك
الأموال وبدلها بلصائع والأعوان، وأصبح دهماء الشعب على استعداد للإنكار
الخلافة على لعاسيين بها والاستسلام للأدعاء الوائبين علسها، وتنازع
المستحلون لضعاف الدينية في طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من
المغتصبين أو المستضعفين

وفي تاريخ شاعر مشهور بالصموخ مثلاً لأدعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم
الكتابه والأدب مرة أخرى أو مراب، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذي نسب
في بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن ونشأ بين العلويين في
الكوفة فإنه ادعى «نبوة أو المهديه في سادية السماوة» يبلغ من تعاقب دعوته أن
خافه وإلى حمص من قبل الإخشيد باعتقله ولم يطلقه إلا وقد عدل عن دعواه،

ومن أحاديث المعمرات حتى طواب بها كما جاء في «رسالة العفراء» أنهم قالوا له قى بى عدى «هاهنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل ممضى إلى تلك الناقة وهى رثحة فى الإبر ونحيل حتى ننف على طهرها، ففرت ساعه وتكرت برهة ثم سكن بهاها ومشت مشى المسمحة^(١) وورده بها الحلة وهو راكب عليها فعحبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم»

قال أبو العلاء بعد ذلك «وحدثت أيضا أنه كان فى ديوان اللادقية وأن بعض الكتاب انعلت على يده سكين الألام فجرحه جرحا مفرطا، وأن أبا الطيب تفر عنها من ريقه وشد عليها غير مستظر لوقته وقال للمحروح لا تحلها فى يومك، وعده أياما وليالى مبرئ اسرح فصارو يعتفدون فى نى لطيب أعظم اعتقاد، ويقولون إنه كمحى الأموات وحدث رجل كان أبو الطيب قد استحقى عنده فى اللادقية أو فى غيرها من السواحل، إنه أرد الانتقال من موضع إلى موضع فحرج بالليل ومعه ذلك الرخ، ولقيهما كلب ألح عيهما فى اسباح، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائذ إنك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عد الرجل ألغى الأمر كما ذكر.»

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عفراء شباب أبى الطيب، فم أوفى على الشبهوخة كان قد عدس رما عن دعواه ولم يعد عن طلب الولايه من كاهور الذى كان خصيا معلوك فاستيد باعرش وأصبح فيما رعم «دون الله يعيد فى مصر».

قال داعى الدعاة بصف حان الناس فى تلك الأرملة من كتاب أرسله إلى أبى العلاء المعرى «. إبنى شفت بطن الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشهدت الناس بين رجيين بما متحلا بشريعة صبا إليها ونهج بها إلى الحد الذى بن قيل له من أخبار شرعه إن فيلا طار أو حملا بص لما قابله إلا بالقبول والتصديق ولكان يكفر من يرى غير رأيه فيه ويسفهه وينعه، فالعق عند من هذه سهله فى شهوة ومضيعة أو متحلا للعقل بعون. إنه ححه الله تعالى على عبده، مبطلا لجميع ما الناس فيه، مستحبا بأوصع استرائع، معترفا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها، لكونها مفعلة لجاهلين، ولجاما على

(١) المسمحة اسمحت الدابة لانت وبقادت بعد استصعاب

رؤوس المحرمين المعارفين، لا عسى أن يدخيرة لعقبي أو منجاة في الدار
الأخرى فلما رمت بي امرأى إلى ديار الشام ومصر سمعت عن النبي، وفقه الله،
بفصل في الأرب والعلم قد اتفقت عليه الأماويل ووضح به البرهان والدليل،
ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين، وفي أمره متسليين فكل يذهب فيه
مذهباً ويتبعه من تقاسيم انطون سببا، وحضرت محسناً حليلاً أجرى فيه ذكره
فقال الحاضرون همه عنا رسميت، حفظته بالعيب، وقلت إن المعلوم من صلايته
في ربه يحميه من الطلقة والريب، وفام في نفسي أن عمده من حقائق دين الله
سرا قد أسبل عليه من التقية ستر وأمر تمر به عن قوم يكهر بعضهم بعضاً،
ويلعن بعضهم بعضاً، ولما سمعت البيت

غدوت مريض الدين والعقل فالقني

لست سمع أنبياء الأمور الصالح

وثقت من خلد فيما حدثت عهوده، وتأكدت عهوده، وقلت إن لساناً يستطيع
يمثل هذه الدعوى بطلاً، ويعتق من هذا العظيم ريف، لسان صامت عنه كل
باطق، وباطق من دروة حب من العلم شامق، فعصده فصد موسى عليه السلام
للطور اقتبس منه ناراً وأحاول أن أرفع بالعجز مثراً، بمعرفته ما تخف عن
معرفته المتحلقون وختلف في حقيقته المختلفون «

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطب هو «أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبي
عمران» صاحب أكبر منصب من مناصب لدعوه في الدولة الفاطمية كتب
رسائله إلى حكيم المعرة يناقشه في تحريمه اللحوم على نفسه ويسأله عن البعث
والعيسة، مستعظماً على متقوليين أن يتهموا بابتكارهم حكيماً كأبي العلاء، وقد
استعار من اسمه «موسى بن أبي عمران» تفسيراً لوقوفه من رهبين المحبس
موقف المعتنيس من نار الطور

وعنى ذكر أبي العلاء واعتقاد الناس في أسرار الحكمة وقوبها الحفية بنقل ما
رواه ابن الرردى حيث ذكر في تاريخه «إن حساده عمرو به وزير حلب فحجر
لأحضره خمسين فارساً بقتله، فإبراهيم أبو العلاء في مجلس له بالمعرة واجتمع
هو وعمه وتآلموا لذلك فقال إن لي رها يعنى، ثم قال كلام منه ما لا يفهم
وقال الصيوف الضيوف الوزير الوزير فوقع المجلس على الخمسين فارساً

فماتوا ووقع الحمام على الورير بحلب فخاب فمن أساس من رعم أنه قتلهم
بدعائه وتهجده، ومنهم من رعم أنه قتلهم بسحره ورصده».

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن العراقي أنه
قال «حدثني يوسف بن عبيد الرحمن الهرکازي قال دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير
محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعري رسيق لا يرى إفساد الصور ويرعم أن
الرسالة تحسن بصفاء العقل فأمر محمود يحمله إليه من المعرة ويبحث خمسين
مارس ليحملوه فأبرزهم أبو العلاء دار الصباغة، فدخل عليه عمه مسلم ابن سيمان
وقال له يا من خي قد دلتك هذه الحارثة والملك محمود يطليك، فإن معنك
عرب وإن أسلمت كان عاراً عليك عند روى الدمام ويركب تنوخ الذئب ولعار، فقال
هون عليك يا عم ولا بأس عليك، هي سلطان يدب عني ثم قام فاعتس وصلى إلى
نصف الليل، ثم قال لعلامه انظر إلى المريح بين هو» فقال في مدبرة كد وكدا، فقال
ربه وصررت تحته وتدا، وشد في رحلي خيف وأربصه إلى الوقت ففعل علامه ذلك،
فسمعناه وهو يقول يا قديم لأرر يا غلة العنبر يا صانع المخروقات وموحد
الموحدات أما هي عرك الذي لا يرام وكنتك أنسى لا بصام، الضيوف الضيوف الوزير
الوزير، ثم ذكر كلمات لا تفهم، وإذا بهذة عظيمة فسأ عنها فقيل. وقعت الدار على
الضيوف الذين كانوا بها فعتلت الخمسين وعند طلوع الشمس وقعت بصفة من حلب
على حياح صائر ألا ترعحو الشيخ فقد وقع الحمام على الورير قال يوسف بن علي
علما شاهدت ذلك دخلت على المعري فقال من أين أنت؟ فقلت من أرض الهرکاز
فقال زعموا أني وتديق، ثم قال، كتب وأملى عني أبياتاً من قصيدة أولها

أستغفر الله في أمني وأرجالي

من غفلتني وثواني سوء أعمالي^(١)

هذه الحالة النفسية اتى عنها ارجاء العالم للإسلامي في القرن الرابع خاضه
خلقة أن يضم فيها عشرات ممن يستهترون أساس بالاسرار الباطنية لأن عالم
الباطن مستودع كل أممية ويعت كل طالب الدين وطالب الدنيا، طالب
المعرفة وطالب السحر والعيانة^(٢) أو طالب العلم الأبيض وطالب العلم الأسود،

(١) كتاب أبي العلاء المعري للمرحوم أحمد تيمور يات.

(٢) العيانة: وجر الطير لمعرفة مساقطها، وأصواتها فيقنعان أو يقنعهم بها.

وخلق أن يقف البصر ضريلاً عند قول داعي الدعاة أنه يطلب سراً من أبي العلاء
وبه قام في نفسه أن عند أبي العلاء «من حقائق دين الله سراً قد أسبر عليه من
لتقية ستر» فإنه قد يكون في هذا القول ماسحاً أو مارجحاً ولكنه أبى عن سعة
العصر كله من «الباطنية» التي تعرضها على نفسه العارف بأسرار الدين

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صدر من داعي الدعاة في
الدولة الفاطمية، وهو الرجل الذي ينتهي إليه كل سر، ويحس إليه التلمذ بعد
درجات يسمع منه - فيما رعم الراعمون - أن الدين نعو وأن القيامة وهم وأن
المحرمات مسقباحة للعرفين، فلو كانت هذه رسالته التي ينتهي إليها كل متقدم
في «درجات الأسرار عما حاجته» أبي محاسبة أبي العلاء على الظنن التي تداع
عنه في أمر الحلال والحرام وأمر البيع والحساب» لقد كان الرضى عن ندهم
الريضة جميعاً أوى به من التعرض لأدبيها ومحاسبتهم عليها، فربهم يتبرعون
بما يحتهد له ويرتب العراتب ويحصل الحيل للوصول إليه، بعد طول العناء.

إلا أن الخلاصة الثابتة هي ذلك العصر أن «الباطنية» الواقعية حالة من
الحالات التي لا تستغرب من دعائه المخلصين وأدعيائه المعرضين، فهناك
«باطنية» يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر و
مذهب منظم، و دعاء الأسرار في تلك البيئة أمر مستظر متقرب لا عراية فيه، وقرب
ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المبهمة لنفسه أو يطلب امكابة بما يعمل
ويقتلعه منه غيره، وفقاً لشرطه وتديره

وقد صار المجتمع الإسلامي إلى تلك الحالة في القرن الرابع وما تلاه بعد
تمهيدات متلاحقة بعضها من فعل السياسة وبعضها من فعل لثقافة والعادة
لمستحدثة

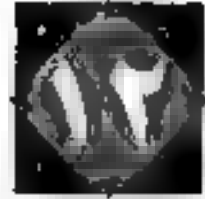
فأما التمهيدات التي هي من فعل سياسة فهي ما أسلفناه من ترعرع الثقة
بحق سلطان لقائم على اختلاف الحاكمين والحكومات وأما التمهيدات التي
هي من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهي انتشار العسفة وبشأة البحوث
العقلية في علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد، ومنها اقتباس الحصارات
العربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتحديث والاسترسال مع العرف
الطارئ في غير بحث ولا محالة

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبعصون التعبير ويحفظون على كل هديم

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التحديد والتعبير، وكانوا مظنة للثبوت من أنصار القديم، فكان من الطبيعي الذي لا عراية فيه أن يصطبغوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون المحبة عند «الواصلين» الممككين من بواطن الأسرار، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رحمت الطيور ولا يأمرن العامة ولا ذوي السلطان المتوجسين من كل جديد، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقوامًا يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة، وهي علوم التنجيم والتماس الأسرار عند المحرم.

ولم يكن الفرق بين علم المحرم الصحيح وعلم المحرم ايرث قد حسم في ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المعظيين من الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بعينه الأرواح لورانية انتهى لا تقبل الفساد على كواكب انشاء، وأن الصلة بينها وبين الإنسان تتوقف على ارياضة والصفاء، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتحلى ولا يسمعون أن ينكشف العطاء عن البصر والبصيرة فتلمح في العالم العلوي ما أودعه الله فيه من الدلائل والإشارات

وإذا كانت «الباطنية الواعية» قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان مدعى النبوة أو المهدي، وقد أوقعت في النفوس أن ناسكا صريحا يسيطر على الورراء وحبود بقوة العيب أو بقوة المحرم، فمن الخطأ أن يقال إن الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاضلة، وإن هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح في الخفاء، وكل ما ندرع به الصامعون في الحكم من ذرائع الدب والذئب.



الباطنية الفاطمية

وكتب الفاطميون على هذا باطنية ماضية أو إسماعيلية، إلى جانب هذه الباطنية الواقعية

لم يبق الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الإسماعيلية إلى دعوة من المجوس أو اليهود سهرها تديراً ولحقها تلغيفاً لهدم الإسلام خاصة وهدم الديانات عامة، وبلقين «الواصلين» دروس الكفر والتعطيل وإنكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات، كراهة للعرب وسؤلتهم، وانتقاماً منهم بالدسياسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان.

فالتهمة ضعيفة، لأنها جاءت من مغرضين عريضهم معروف وهي ضعيفة بعد هذا، لأنها مصطنعة مبنية لا تثبت على رعم واحد ولا تستقيم على وجهه وحده فأصل اندعوه سارة من المجوس وبارة من اليهود، ومرة يرجع أصلها إلى دبصان الذي ظهر قبل الإسلام ومرة أخرى يرجع إلى ابن القلاح الذي نشب من شعره أنه مسلم وأنه مث في الإمام جعفر بعد أن لا به وتكلم عليه لأن أنفة الشيعة يقتلون ويهزمون.

وفي التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تحرى جرى المألوف من طيناع النفوس، فإن الرخص الذي بكفر بالدين عامة لا يمكن الحماسة لهدم دين ولا يطلع منه هذه الحماسة أن يصير للجهاد الطويل ويستبين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب إجماع الناس من حوله على اختلاف الحبل والأرباب.

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن يهدم الدين إذا كفر به في كل عصر طائفة من «الواصلين» معدودين على الأصابع يسبيحون لمحرمان في الخفاء على أفراد وبيع ومرة من الأصحاب واسطراء، فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء يغير دعوة من داع ويغير سعي أو سعاية من داع ويم يزل الشك يتسرب إلى حاد من الحائرين والمرتدسين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم ويرى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق لم يهدم بين العلية ولا بين السواد.

وربما تشيع لفاطميين أساس خطبوا في لعنائد خبيث عشواء وجهروا بمذهب من مذهب الفلسفة أو التصوف ينكره الإسلام الصحيح ولكن التشيع من هذا القبيل قد سمح لم يقطع قط من عهد الامام عليه السلام إلى عهدنا الذي نحن فيه، ولم يكن هذا التشيع المفقوت حجة على الإمام علي ولا على أحد من بني الأبرار الذين سمعوا به فأكروه أو سكتوا عنه ولم يرتصوه

عفى حياه الإمام علي كان عبدالله بن سبأ وأصحابه يؤلهون علياً ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويفوضون بركة النبي ويسترون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح وبعد مقتل الإمام نشط أصحاب الباطنية الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول في حياة «محمد بن حنفية» وقيل عن المختار الثقفي داعية مفرق أنه «دعى السوء ونظم له قرأنا يعارض به الغرار الكريم ويفرسه على صحبه في اصطوات ومكار الإمام وسمه محمد في الإسلام أرفع من أن يتصور إليه من أهل هذا عبو يلج في عذرائه فضلاً عن الولي والصدق وقد بقي امرحئون والقائلون بالبرحة والحلول يتعمدون في صلاتهم بعد أن يرى منهم الإمام على وعاقبهم بالحريق، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام في الحجاز وبركهم بالعراق يسجون في الادعاء له والادعاء عليه

ولم يخل عصر الإمام جعفر الصادق - أبي إسماعيل رأس الإسماعيليين - من دعية يعزى على الأئمة العلويين وهم أحياء، كما فعل أبو الخطاب الاسدي الذي كان يقول بتحريض الحبة والنار، وزعم في مبدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين «سبوا الله، ثم رعم أنهم أرباب وان الإمام جعفر إله بعد قسعه جعفر الصادق وبرئ منه وثقه» قال أبو منصور البعادي صاحب كتاب الفرق بين الفرق «داعى بعد ذلك في نفسه أنه لاله قل أتباعه إن جعفر إله غير أن أبا الخطاب أفصح منه وأفضل من على وحور شهادة الزور على مخالفيهم».

وكان غيرهم كذلك يحورون شهادة الزور على المخالفين، ومن شهادة الزور ما تحلوه لأصحاب المذاهب من اشيعيين والسيديين

وقد دعا الفرامطة للفاطميين كما دعا عبدالله بن سبأ للإمام علي وكما دعا المختار لابنه محمد بن الحنفية، فأكرهم الخليفة الفاطمي حين خرجوا على

لديهم وأعاروا على الحجار واعتدوا على الحجاج وكسب اضعفة، فأنتم وهم
 بالمقرب إلى داعية لفراطة يهون له «العجب من كتبك إلينا ممسًا علينا بما
 ارتكبته واجترأته باسمي من حرم الله وجيرانه بالأماكن التي لم تربي الحاهلية
 بحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعدت ذلك وفعلت الحجر الذي هو يمين
 الله في الأرض يصافح بها عباده وحملته إلى أرضك ورجوت أن تشكر، فعنك
 الله ثم بعنك والسلام على من سمع المسلمون من لسانه وبده».

وعلى خلاف ما قيل عن إباجة المصنفات في المذهب الفاطمي ثبت من
 مصنفات أئمة منهم أنهم كتبوا بقصدون في الحلال المباح ويأسرون أتباعهم
 ويريدونهم بالقصد فيه وقد أوصى المعز أئمة من رعاياه كرامة بالمعروف فقال
 عن الزوجات «الزمو الواحدة التي تكون لكم ولا شترها إلى التكثر منهن والرغبة
 فيهن فيتبعن عيشكم وتعود المصرة عليكم وتسهكوا أديانكم وتذهب موتكم
 وتصعب تحائركم^(١)، فحسب الرجل الواحد الواحدة».

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا وهو أعلمهم بالمسيح
 يقول كما روى عنه القاضي النعمان في كتاب «المحاسن والمساير» «من
 نظر في انحامة ليعلم عدل السنين والحساب وموقفت النور والمهار وليعتبر
 بدس عظيم قدرة الله حل ذكره وما في تلك من الدلائل على موحيده لا شريك
 به فقد أحس وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم عيب الله والقضاء بما يكون فقد
 أساء وأخطأ».

وكان العزيز كالمعز في هذا المعتقد كما قال أخوه تميم في إحدى قصائده

ولما اختلفنا في النجوم وعلماها

وفي أسها بالنفع والضرر قد تجرى

فمن مؤمن منا بها ومكذب

ومن مكذب فيها الجدال وما يدري

ومن قائل تجرى بسعد وأنحس

وتعلم ما يأتي من الخير والشر

(١) تحائركم، البديهة الشدة.

فَعَلِمْنَاهَا شَأْوَيْهِمْ ذَلِكَ كُلُّهُ
 بِمَا فِيهِ مِنْ سِرٍّ وَمَا فِيهِ مِنْ جَهْرٍ
 عَنْ الظَّاهِرِ الْمُبْصُورِ جَدَّكَ مَا قَلَا
 وَكَانَ بِسَهْلاً دُونَ الْبَرِيَّةِ لِمَا خَبِرَ
 فَأَخْبِرْتَنِي أَنَّ الْمُنْجِمَ كَاهِنَ
 بِمَا قَالَ، وَالْكُهَّانَ مِنْ شَيْعَةِ الْكُفْرِ
 وَأَنَّ جَمِيعَ الْكَافِرِينَ مُصِيرُهُمْ
 إِلَى النَّارِ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَالْحَشْرِ
 فَجِئْتَنِي بَعْدَ اخْتِلَافٍ وَمَرِيَّةٍ^(١)
 وَأَلْفَتَنِي بَعْدَ التَّنَافُسِ وَالزَّجْرِ
 وَأَوْضَحْتَ فِيهَا قَوْلَ حَقٍّ مَبْرُورٍ
 يَحُلِّي ظِلَامَ الشَّكِّ عَنْ كُلِّ ذِي فِكْرٍ
 فَسَعَدْنَا إِلَى أَنَّ الْكُوكِبَ زَيْعَةً
 وَفِيهَا رَجُومٌ لِلشَّيَاطِينِ إِذْ تَسْرِي
 مَسْخَرَةً مُضْطَرَّةً فِي بَرُوجِهَا
 تَمْصِرُ يَتَدَيَّرُ إِلَهُ عَلَى قَدَرٍ
 وَأَنَّ جَمِيعَ الْعَالَمِينَ إِلَهُ وَحْدَهُ
 تَبَارَكَ مِنْ رَبِّ وَمِنْ صَمَدٍ وَتَرٍ
 وَمَا عَلِمْتَ مِنْهُ الْأَسْمَاءَ بِمَا
 رَوَاهُ عَنْ الْمُخْتَارِ جَدُّهُمْ الْبَطِينِ

وقد خولط خديعة من خلفاء الفاطميين في عقوله - وهو الحاكم بأمر الله - فلم
 يتجدد من تصوره أنه تلقى من آياته وأسلابه مذهب لإمحاء وأدعاء الريوية، وأنه
 وريث قوم من اليهود أو المجوس مدسسين على الإسلام ليفسدوه وينقصوه، من

(١) مريّة الشك والحدس.

ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويعصى عنهم تارة أخرى على كراهية
وبهonor، وأنه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يده وركبته،
وأمر ألا يزيد الناس في اسلام حسن يدخلون الله على قولهم «السلام على أمير
المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ويجوز أن يقال عن هذه الخبيفة إنه كان في تحليصه وتحديده هريسه
المضطلير من وراثته ولا يجوز أن يعلى إله تولى العرش وهو يعلم أنه يهودى أو
محوسى يستدرج المسلمين إلى الكفر والإباحة وبه يهدم دولته ودونه الإسلام
كله ومما قد ثبت تاجر عليه آباؤه وأضراره.

ولم تثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم ورواجره وكل ما شاع عن
نفاذه ويدوانه فإن التشيع بالمصححات والمبالغ مألوف في القاهرة ذلك
العهد وما تلاه.

وقد وصح كتاب عن «قرة قوش» صورته لباس في صورة الطاعة اندى لا
يبالى ما يأمربه من المستحيلات والعزائب وعقر الكثيرين عن موضع الحكمة
من تلقى الرواة فحسبوها كلها حدا لا مربة فيه، وتناقلوه وأصافوا بها،
ولم يرالوا يردونها على هذا الفهم اخضع إلى زمن قريب وقد كان «قرة
قوش» على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا في الحرم وأصالة الرأي
وحسن التدبير.

وعند ابن خلدون أن الاحتلاق طاهر فيما يدعو على الحاكم من الدعوى
الدينية، وأنه كان مضطربا في الحور والعسل والإحافة والامن والسك والبدعة،
وأب ما يروى عنه من الكفر فعير صريح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من
الحاكم بعض ذلك لفتر لوفته، وأما مذهبه في رافضة معروف وقد كان
مضطربا فيه، ومع ذلك فكان يأبى لأهل السنة من المصريين في صلاة
القرأويح ثم ينهى عنها.

على أن الأقاوير عن حاكم صحت أولم يصح - إنما تروى عنه ويعلم
روتها بهم يتكلمون عن رجل مخالف في عقله لا يعول له على سر أو علانية

(١) بجديفة جده، كفر بالدين، واستنق عشاء الله

ووجب هذا أن يوضح ما يستبعد بسببه إلى الدعوة الفاطمية في صميمها على
حسب ما اتفقتنا إليه من استواهره النفسية والتاريخية

فبحر لا يستبعد أن يكون من الدعاة الفاضلين أناس قد استخرجوا لأنفسهم
من دراساتهم في التصوف أو الفلسفة أو التحكيم مدعيا ينكره علماء الدين من
الشيعة والشيعة

ولا يستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم
ويصقوا بها كما يلصق طلاب الصانع والهازون بغيره بكل دعوة كبيرة تتسع
خدمة الصانع الخاصة مع خدمة الصانع العامة.

ولا يستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول في دور
التأسيس أو في دور الانحلال

ليس شيء من ذلك بعيداً ولا موحياً لاستبعاده نظراً إلى أحكام العقل أو شواهد
التاريخ

ولكن الذي يستبعده ويرى أنه مناقض لواقع وللمعروف من الواقع
نفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين الناس من المعطلين على إنشاء دولة
لهدم الدين الإسلامي والدولة الإسلامية معه وأن يشمل هذا المواطؤ أهواها
في المغرب والمشرق ويدوم من قرن إلى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها
بزمن طويل.

هذا هو البعيد عقلاً والبعيد في دعوى المدعين الذين لم يسعدوه قط بدلائل يقرب
إلى العقل ذلك الزعم البعيد.

أما ما عدا ذلك من شؤون الدعوة الفاطمية، أو شؤون الدعوة العلوية هي
جعلتها فقد سار في التاريخ مطرداً على النهج الذي ينبغي أن يسير عليه

إن الإيمان بالإمامة وإطلاع الإمام على الأسرار التي تخفى على غيره أمر
لزم من لوازم الدعوة العلوية هي بنائها التاريخية

فإن المؤمن بحق على وأبديته هي الإمامة يسأل نفسه لم لا يبصره الله على
أدعياء الإمامة والخلافة؟

إنه يؤمن بالله وفدركه وقدره، فلا جواب لذلك السؤال عنده إلا أنها حكمة يعلمها الله، وإن الإمام العلوي مددورة بزمان غير هذا الزمان، وإن الإمام الحق يعلم زمانه أو يتبعى أن يعلمه بالهام من الله

وقد آمن شيعة على بهذا ومبوا معه بعرفانه لعلوم الحفر وتأويل الكتب، وكما تباعدت المسافة بين إمامة الواقع وإمامة الحق، ساعدت معها المسافة بين إمامه انظار وإمامة اباطن، ثم جاء الزمن الذي صبح فيه إمامة اباطن مستورة حنف فأصبح فيه علم ادين والدسا عر هوت بما يتعلمه لطالب من الإمام المستور ومن دعائه الدين يخلصون إليه ويعلمون مكانه ويسرون أقواله وإسراره، ولا بد من هؤلاء السعة ولا مخلص من هذا المعلم

وإذا كان السلطان صاحب الحد وأصوله يعتمد في قيام دوله على الشريعة والنصاء وعلى السيف والشرطه فعلم يعتمد الإمام المستور الذي لا سلطان له من شرطه ولا جند ولا قضاء؟

إنه لن يعتمد على شيء غير الصعة والثقة التي لا تترعرع، فلا حرم بطبعه المصنع وهو يؤمر بعصمته على الأقل في شؤون إمامته، ويؤمن بهلاك روحه إن خرج على حكم الطاعة وخسر أمانة لذيذ، والآخرة، ونقص العهود وحشت باليمين

كل هذا بديه ولا حاجة به إلى وصف أوراق أو رص أسايد لأنه لن يكون إلا هكذا حيثما كان، وقد كان

ولا نسي أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم يومنون بحقهم ويومنون بيومهم الموعود ويؤمنون بالسرا الذي يروصون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهمه من هداية الله

ومن التوفيقات التي سميها بتوفيقات «الموقف» أن الباطنية الواقعية والباطنية العاطفية أو الإمامية على الجملة تتلاقى هنا بحكم الموقف الواحد في كثير من الأمور

فالدرسات المستورة أو المكتومة تتلاقى في جانب واحد وإن كانت متعددة المطالب والموضوعات،

وقد كان المحافظون على الواقع الذين يذكرون هذه الدراسات ويمنعونها عن درجائهم من المنع تتفاوت في لعنف والصرامة.

هكذا «الموقف الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو مجموعة التي لا يرتجح إليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم

وليس من محدد المصداق أن فلاسفة المشرق كانوا من الشبهة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم فكان الكندي وإفرايم وابن سينا من الشبهة، وكان إخوان الصفاء كذلك من الشبهة ومن كان من الفلاسفة سيما كالفخر الرازي مذهبهم لفلسفي في صفات الله يوافق مذهب الإسماعيليين وأئمة الفاطميين، إذ كان يرى أن الإيمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعدد لا يوفق التوحيد.

والذي يستخلصه من المذهب الفاطمي أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيصي الإلهي الذي تعلمه المشركيون باسم الحكيم افلاطون وهو ينتمي في حقيقته إلى الحكيم افلوطين

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أياه كان يذهب في الكلام عن الحصر والنفس مذهب الإسماعيلية

ونستخلصه من رسائل إخوان الصفاء وهم من انفتلين بمذهب الفيصي الذي كان يقول به افلوطين

بل نستخلصه من خلط الفاطميين في هذا المذهب، لأنه هو المذهب الذي يتعرض لهذا الخلط في كل مكان، وقد تعرض له في المشرق كما تعرض له بين الأوربيين في القرون الوسطى ولا يزال يتعرض له في العصر الحديث

وعلى بعض ما قيل عن الإباحة في مذهب الإسماعيليين يمتاز مذهب الفيصي الإلهي بالمبالغة في تطهر والإعراض عن الشهوات والترفع عن عراة الدنيا حتى يتهاون عليها الجهلاء، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشيء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الإلهية والبحث عنه في كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود

وقد نحه إخوان الصفاء في غير موضع من رسائلهم إلى وجوب التطهر على الحكم الخالص للحكمة في حياته الخاصة وعامة، وقالوا غير مرة أن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الإنسان عن آخرته ومعاده، ومن ذلك قولهم في رسالة بحسابات والطبيعات «اعلم أن الاستغراق في الشهوات في هذه الدنيا ينسى الإنسان أمر الآخرة ويشككه ويمنسه منها، كما قال قائلهم في هذا المعنى

هي السجينة وقد وعدوا بأخري

وتسويف الطفون من السوام

وقيل أيضاً في هذا المعنى شعراً

خذوا بنصيب من نعيم وسرة

وكل وان طال المدى يصيرم

وقال آخر وقد كان ساهياً عن أمر الآخرة

ما جاءني أحد يخبر إنّه

في جنة من مات أو في نار

وشعارهم كثيرة في مثل هذه الطلوع والشكوك والحيرة التي وقعوا فيها عقوبة لهم عندما يذكو وصية ربهم ويصبحه نبيائهم واتباع علمائهم واحكامهم فيما يدعونهم إليه ويرعبون فيه من نعيم الآخرة، ويأمرهم به من نره في الدن وبهوتهم عنه من العرور بشهواتهم وعاجل حلأولها»

ومد انقدم عرف عن هذا المذهب الفلسفي أنه مذهب بسك وعفة وعروف عن الماديات ونرمع إلى عالم الروح وكان أفنوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره في العفة ولزمه والانقطاع عن شؤ عن الثروة والجاه وكان من تلاميذه من يبيع قصوره وفدائسه ليأرمه في معبد ويعيش على مناله

ولا عني عن خلاصة لهذا المذهب ينقلها هنا كما أوردها في رسالتنا عن اشيوخ ابرئيس ابن سينا وهي كما يلي

« إنه بمحاوِر أرسطو أشواط بعيدة في التثريه والتحرير، فيرى أن الله أو الأحد من وراء الوجود ومن وراء الصفات، لا يعرف ولا يوصف، ولا يوجد

في مكان ولا يحلو منه مكان، وكفاله هو الكمال اندي نفهمه بعض انهم بمعنى
لنقص عنه، وهيئات أن نفهمه بإثبات صفة من الصفات، لأنا نستطيع أن نقول
به لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول إنه هكذا يكون.

«وقد يتصل به الإنسان في حالة الكشف والتحلي حين تتجاوز الروح
حسها كما يقول، ويكسب حاله لا تقبل التأمل والتفكير، فإذا انقضت فقد يتوحد
الإنسان بعد ذلك إلى عقله فيتأمر ويفكر ويسعد بذلك من مقام الأحد إلى مقام
العقل الذي هو دونه، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول، ويقول أفلاطون كما
يقول أرسطو إن الله و «الأحد» لا يشغل بغير ذاته لأنه مستغن بذاته كل
الاستغناء أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن
العقل من هذا التأمل، وإن العقل بعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه في
مرتبة الوجدانية ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو
هو لقوة الخالقة التي أبدعت هذه المحسوسات

«ومن البديهي أن صدور بحس من الجسم بنفسه ويخرج شيئاً منه ينتقل من
المعطى إلى الأخذ فينقص بانتقاله أما صدور الفكرة من العقل فلا تنقصه ولا
تحرده من شيء فيه ومن هذا امثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذي لا يعتريه
نقص بحال من الأحوال

«والنفس وهي المرتبة الثالثة هي ابوحود عند أفلاطون تنحدر إلى العقل
فتنسجم معه في مفهوم التوحيد والتثنية، وتنحدر إلى الهيولي فتتعدد عن اسحرويد
واستيزيه، وبهذا حلق الأحسام وتصفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت
تتناوله وهي في عالم لقدرة الكاظمة أو عالم الصور المحرمة هذه المحسوسات
هي كالطالان للمفعولات قبل أن تبرزها النفس في عالم المحسوسات، أو هي
كأطباف الحالم وهو يستعيد بآرويه ما كان ينصره بالعيان.

«فالمحسوسات كلها أوهام وحلام، وكلها عشاء باطل يربا بعد من الحقيقة
كلما ابتعد من العقل والحد في اتصاله بالهيولي طبقه دون طبقه، فإن العقل
دور الأحد والنفس دور العقل، والمحسوسات دور النفس، وهكذا تهبط الموجودات
طبقه بعد طبقه حتى يسجد إلى الهيولي التي لا نفس معها، وهي معدن الشر في
العالم، لأنها سلب محض ويحتاج أنما إلى الخلق وهو الإيجاد أو الإيجاب.

«وعد صدرت النفس لفردية من النفس الكلية، ولها كالفنفس الكلية التي صدرت منها اتجاهات فهي باتجاهها إلى النفس الكلية إلهية صاعبة وبتجاهها إلى المحسوسات والأحاساد حيوية شهوية وليست النفس عند أفلوطين مألومة للحسد كما يقول أرسطو، بل هي جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية، فلا تقبل الغناء ولا يحصرها نرمان والمكان، وهي تصدر من النفس الكلية اضطراراً كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول، مستجيبة لطبيعة الإصدار في ذلك العقل، والشوق الهولاني الذي يرفع بالهولي إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات

«والشر في العالم هو الهولي لأنها ساسة تنزل بالمعقولات وأروحيات التي لا تلبسها، ولا محيد عن الشر مع وجود الهولي وقدمها وصرورة الملاسة بينها وبين العقل والنفس في نور من أدوارها وعلى النفس أن تحاها وينصر عليها وعلى شهورانها، فإن أفلح عادت إلى النفس الكلية خالصة محالصة، وإن لم تفلح عادت إلى الحسد مرة أخرى ولعيت في كل مرة حراءها على الدوب التي اقترقها في حياتها الجسدية الماضية.

«ولا حرية للإنسان كما رأيت، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهولي، ولكنه بفارم تنك الضرورة بجهد الشهوات، فيبرقي من مرتبة الحس إلى مرتبة انتأمر إلى مرتبة الكشف، ويستقل من شتد الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة الأحد وصران الكمال، فتحرره ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار ولا محل بيده لشيء من الاختيار، وإن قال به أفلوطين في بعض الأحاس

هذه خلاصه وجيرة حد لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين يعتمد فيها على المراجع الأوروبية الحديثة التي نقتت مباشرة من اليونانية وقد نقل هذا المذهب مجملاً في بعض الأوقات ومفصلاً في أوقات أخرى إلى اللغة العربية، ووقع في نقله خطأ إسماع وخطأ تفسير ففهم الماقلون عصولاً عنه إلى أعلامون ونبهوا مبادئ منه إلى أرسطو، ولكن المتصوفة الإسلاميين وملاسفة الإسلام في المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الإسلامي وهو تنزيه الأحاد وعقيدة التحلي على الخالص من لعباد واعتأملين، ورفضوا منه على

المخصص قوله بتدسخ الأرواح وعفوية الانفس هي هذه اديب يردها إلى الأحساد التي تنشق فيها، أو مكافأتها بردها إلى الأحساد التي تترقى فيها إلى مرتبة فوق مرتبتها.

ووجد الفلاسفة والمتصوفة منّا ما يوافقهم في أقوال أفلوطين، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الإمامة الدينية، وإنما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذاً بالأيمنة الفكرية، واستدل ابن سينا على إمكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى هي الرّيا الأنياء ماسفيات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقّيها العلم يفضة متى تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة، وإن نفس الإنسان تقتصر في مادة الحسد فلا مانع أن تقتصر في مادة الكون بقدرة تستمدّها من علّة العلّ التي تقتصر في جميع الأشياء

وطائفة من أصحاب السّار وحدوا في تداسخ الأرواح ما يعينهم على دعوهم، وعينهم من كان يدعى أنه ابن الإمام على بالتسلسل الروحاني مع اعتراقه بأنه من غير سله في السلاّلة الجسدية راعياً أن النيرة تحصل بالانتماء إلى الروح كما تحصل بالانتماء إلى الحسد ولم يكن في هؤلاء أحد من الباطنيين ولا كانت بهم حاجة إلى هذه الدعوى: لأنهم يصححون سيهم جميعاً إلى الإمام على بغير وسيلة هذا التداسخ المزعوم

ولا شك أن العلامة لبهرسناني كان يخلص طرفاً من مذهب أفلوطين كما وصل إلى المشرق حين قال في تلخيصه لكلام اباطيه عن الصفات إن الله «لم وهب العلم للعالمين غير هو عالم ولما وهب بقدرة للفسادين غير هو قدر، فهو عالم قدر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة و وصف بالعلم والقدرة وأنه أمدع بالأمر العقول الأولى الذي هو تام بالفعل، ثم بتوسطه أمدع لنفس الذي هو غير تام، ولم اشتاق النفس إلى كسر العقول احتاجت إلى حركه من النفس إلى الكمال واحتاجت بحركة إلى الة انحركة انحر الخ».

فهو المذهب في الصفات الإلهية يوافق مذهب أفلوطين في حيلته، وهواه بلا إعراب ولا إبهام إن حين يصف الله بالعلم لا يدرك من كنه العلم إلا ما يعطى

إياه، وإنما حين وصف الله بالقدرة لا سر من كنه القدرة إلا ما قدر عبده بأمر الله، وهكذا في سائر الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه أنه إنكار لعلم الله وقدرته، إن كان أصحاب الفيض الإلهي يذكرون بقائص الكمالات ويرتفعون بالكمالات الإلهية مرتفعاً تعجز عن إدراكه العقول

يكن هذا المذهب كما أسلف عرضة للخلط في فهمه ممن يهرمون بما لا يعرفون فإن هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الإنكار، فإن الخلاص من أوهام ' المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التزكية والتطهير ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى في الأجسام

كذلك يخلطون بينه وبين وحده لوجود وهما مذهبان متناقضان فإن انقائليين بوحدة الوجود يسبقون الصفة الإلهية على الموحودات جميعاً وهو قول يسبقه أفلوطين جد النقي تنزيهاً لله «الأحد» عن جميع المحسوسات والمتعديات .

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تتجلى في ناس بعد أناس فيخيل إليه أن اللاحق أفضل من السابق أو أن قيام مشيئة الله في كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء.

هذا الخلط في فهم المذهب قد حصى على الحقيقة في غير طائل، وجر إلى الخط في الطنون لغير علة لولا حماقة وخفة العقل وحب الحذقة والادعاء

وقد كان ابن هاشم الأندلسي من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرمون^(١) فيها بما لا يعرفون، ولم تكن حذيقته مقصوره على مذهب الإسماعيلية بل هي طبيعة نشأت معه في موطنه، ولغظ بالفلسفة وهو يتصل بصاحب إشيلية فأقصاه خوفاً من اتهامه بمشاركته في أصاليكه وخزعبلاته، ولما مدح المعز الفاطمي بقصيدته الرائية التي قال في مطلعها

ها شئت لا ما شاعن الأفكار

فما جكم فأتت السواحد القهر

(١) أوهام، جمع وهم، بفتحين قيل يرمى رقه أسوطه فتؤخذ به نهاية

(٢) يهرمون، حرف الهمزة بضمها طريق بالدخ إعياء به

ثم يكن يريد أن يقول إن المعز أقدر من الله وإلا لما قل بعد ذلك
وكأنهما أنت النبي محمد

وكأنهما أنصارك الأنصار

وإنما أراد أن يتحدث بقى سمع عن صفات القدرة والعلم وأن الله يوصف
بالقدرة لأنه يعطيها وأن مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بعن يديه لإصغاء تلك
العشيقة، فخلط وخطب واتهمه الناس ولهم العذر فيما اتهموه به، ولم تكن به ولا
بمصدوحه حاجة إليه.

إلا أننا إن صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من صروب الحذقة والمباغة في
الشعر خاصة لم نجد في كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء لطريق من
عبارات المجاز والكناية، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء سم يسمع
مثله من إمام كبير كمحيى الدين بن عربي في كتب التأويل أو كتب لترسل
الصريح وقد كتب محيى الدين إلى فخر الدين الرازي رسالة يقول فيها «البريوية
سر لو ظهر بطلت النبوة وللنبوة سر لو كشف لبطل العم، وللعلماء ما لله سر لو
ظهر لبطلت الأحكام، فقوام الإيمان واستقامة الشرع يكتم بسرية» إلى آخر ما
قار عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحادية وهو كل دى علم عليهم

وهنا كلام لولا ولم المتصوفة بالإغراب لقال قائمه أن النبوة لازمة لأن الناس
لا يكشفون سر الغيب بغيره وإن العلم لازم لأن النبوة لا نصر إلى الناس
أجمعين وإن الأحكام لازمة لأن العالم برحمة العلم ولما تزعج الأحكام
ولكن الإغراب في أساليب المتصوفة وانحذله في أساليب من بسمعون ولا
يفقهون أو من يفقهون القليل وبحبون أن يظهروا لفقه الكثير - كل أولئك يقولون
إلى الظنون حيث لا موجب للظنون.

وجملة القول أن الباطنية لفاطمية لم تقترن بدعوة إلى قيام دولة تحارب
أسول ابقائمة لما استعربها الناس ذلك الاستعراب ولا اضطربت حولها انتهم
و لأقارب ذلك المصطرب بعد كان كل مذهب في ذلك العصر «باطنيا» على نحو
من الأنحاء، وأوشك أن يتساوى في هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب
الفلسفة وإخوان الصفاء ممن يذكرون العلم بينهم ويظهرون منه جيدا بعد حين
ما طاب لهم أن يظهروه.

هذا الإمام العزالي - وهو من أقطاب أهل السنة ومبعضي الفلسفة - كان يؤلف لل العامة غير ما يؤلفه للخاصة وكان من كتبه ما بصح به على غير هله والإمام ابن عربي المصنوف كان يدين بالسرية ويرى أنها أمام العلم والمعرفة، وأبو العلاء المعري الشاعر الحكيم كان في رأى ساعى الدعاة يحفى ما يعلم عن أساس يلغى بعضهم بعضا ويتهم بعضهم بعضا بالكفر وامرؤ من الدين، وشعارهم جميعا

هل جيبية لـرام وامض عنه بسلام
من يداء الضمت خير لك من ذاء الكلام
إلا أن يكون مدونا لعم لا حية له فيه أو منحردا لرسالة يهون فيها عنه أن
يقول وأن يقال فيه

ومن محقق أن الباطنية لفاطمية إليها أصيف الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره في زمرتها، ومن هذا الكثير أنظمة لم تنهدما من قس وعقائد لم تكثر لامة لها ولا معقوبة منها، أهم هذه الأنظمة نظام لفانبيين الدير كانوا عدة الرؤساء فى حوادث العيبة والهجوم على المخاطر، هؤلاء لم يظهر لهم عم فى خدمة لباطنية إلا بعد مشوء لدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان لالخلفاء الفاطميين حمد من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء حبايا من غير مذهبهم ولا من المعاملين لطوائف الاسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء

* * *

بعد استبد الأمير بدر الحماني بالامر دون الخليفة - وهو أمير الحيوش الذى ينسب إليه فى مرحوش والجمالية - وحاء به الأفضل من بعده وسار مع الخليفة لامر على خطة ابيه، وكان بدر ربه الأفضل على مذهب من مذهب اشبعة غير مذهب الإسماعيلية، فصادروا الإسماعيليين وبفوا أناس من قادتهم وغلابهم من الديار الحصرية وصاق لخليفة الامر بوزيره درعا فتحدث إلى ابن عمه فى قتله عند دخوله إليه بقصر بخلافه ووافق به عمه على وجوب الخلاص من ابوزيد المستبد ولكنه شفق على سمعة القصر من حرائر غثيال الوزراء والكبراء فى رحابه، وش ر عليه بتحريض رجن من صنائع الوزير نفسه على قتله وإعرانه بمنصب سيده مكافاه به على طاعته واتفعا على اختيار اسامور

ابن البطائحي بهذه المهمة فقبل هذا ما أمره به طمعاً في الوزارة، ولم يجد البطائحي من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسبوا إليها خفية وشجعهم على الانتقام منه إغراء البطائحي لهم ووعدهم بالعفو عنهم وإسعاد الوظائف إليهم متى آلت إليه وزارة الدولة، وبو كان نظام الفدائيين معروفاً يومئذ في الدولة العاطمية لم استطاع وزير الأرمينية المخالف لمذهب الإسماعيلية أن يستند بالإمام المطاع ولا احتاج الإمام المطاع إلى التفكير في اغتيال الوزير بين يديه بقصر الخلافة، ولا إلى تدمير تلك المؤامرة التي اعتمد فيها على الوعد والإغراء والاستعانة بدوى «المطامع والتراث»^(١)

ولا شك أن الحسب من الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائيين إلا بعد استيلائه - كما سيلي - على قلعة «الموت» واضطراره إلى حماية نفسه من دول حوّه تحرد الحيوش لقتاله، وهو في قلعته بعير جيش يقاوم تلك الحيوش الراحفة عليه بمثل عدتها وعددها في ميادين القتال.

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها، وأمعنت في التحفى أو في «المطامعية» الواقعية حين أمعنت في الهجوم على خصومها وأمعنت خصومها في الهجوم عليها

• • •

أما قبل دخول ابن الصباح في زهرة الياضية فقد كان استجداء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة في بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة، تسرع إلى التكميل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة انتهى تمالاً عليها «مجوس أو يهود» بيثوا المية على هدم الدين وتصلين المسلمين، بل كان لزخا لأصحاب تلك الحكومات ولا شك أن يشركوا رعاياهم معهم في «الخوف من الإسماعيلية، فلو أنهم قابو لأولئك الرعايا إن الإسماعيليين طلاب ملك يفتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة في حربهم والدلالة على مكانهم إذا كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم في أيدي أساس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وإن استحقوه يستيتهم، وأن أصحاب السلطان الفعار من أجساد تديلم والدرك دخلاء

(١) التراث جمع تراث وهي التدر

على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين فإن لم يكن خطر الإسماعيلية خطراً على الدين وعلى المسلمين جميعاً فهو خطر لا بهم لبس في كثير ولا قليل، ما دام مقصوراً على أصحاب العروش والدسوس^(١)

ولهذا راجت خرافة السب إلى المحوس واليهود، وهي خرافة تنكرف الحقائق النفسية ولا تزيدها الشواهد التاريخية، وكل ما ثمت بسبته إلى أصحاب اباطنية الفاطمية فهو من المسائر التي يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين، بل يختلف عليها الشيعيون الإماميون أنفسهم بين القائلين بإمامة موسى والفائلين بإمامة إسماعيل من أبناء جعفر الصادق، وليس وراء ذلك كله دسيسة تهدم الإسلام كله وتصيل للمسلمين أجمعين

* * *

ومحس القول في المذهب لإسماعيلي من الوجهة انفسية أنه هو مذهب الفيص لإلهي كما اعتقده المتصوفة بمسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية يضاف إليه القوم بعصمة الإمام وأبه وحده القدر على التأويل الصحيح والإحاطة ببواطن انزيل وينبغي أن يذكر هذا أن القول بالعصمة ابواجبة لكل إمام كان مذهب من مذاهب الفلسفة في حكومة المدينة الفاضلة، فإن الفيلسوف الفارابي الذي كان ينصب بالمعجم الذي قد طلب لإمام المدينة الفاضلة كمال العقل و لعل والخيار والسوق والحلق والخلق، ولعله لهذا كان قريباً من الشيعة محباً للمتشيعة.

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المومنين به سب كل خليعه غير الإمام على وبيته الأكرمين ولكن سب الخلفاء جرى على أسنة صائفة من علاة الفاطميين وغير الفاطميين، ما تنكره عقلاؤهم وحكمائهم، واستنكره أدبا من لا ينكره اعتقاداً ولا يرى الخلافة لأحد غير الإمام على وبنيه، ولا عذر من المسنة لبطله على كل حال، ولكن الخلاف بقبيح الذي أطلق الأسمه بلعن على على المبارزين أو سبعين سبه هو الخلاف الفبيح الذي أطلق الأسمه بعد ذلك بالحرّة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين

* * *

(١) الدسوس، جمع دسوس وهو المحسوس وصدر البين



حسن بن الصباح

أشرب في لعصن لسابق إلى النفر الذي صرا على نظام الدعوة الإسلامية بعد دخول الحسن بن الصباح في رمرتها، وسفري من حملة الأخبار والأعمال التي رويت عن ابن الصباح أن الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التي لا تتصدى لدعوة من ادعوات، لا أصافت إليها شيئ من عدها وطبعتها بطابعها، وأنه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم إلى وجهته، بل كان من الدس يديرون الدولاب إلى وجههم حين يتعلقون به، ولا يدفعهم إلى السعلق به إلا أنهم لا يستطيعون أن يخافوا لأنفسهم دولاباً مستقلاً يتعلق به الآخرون

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التي روت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح ولحبر الكاذب على السواء وهي الجنون بالسيطرة والعلبة ونعمد أن سميها الحبور بالسيطرة ولا سميها حبا للسيطرة ولا رعبة منها لأنه كان مغلوب لدفعه نفسه أو كان أول من غلبه تلك الدرعة فمضى معها مسوقا لها غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها

والسيطرة محبوبة لكل إنسان، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها، وبين من يطلبها لأنه يفصلها على عيشة بغير سيطرة أو يفصلها على عيشة الطاعة والإذعان للسيطرتين

بأنك مضطر إلى طلب السيطرة، وهذا مختار في المفاضلة بين الحصول عليها والاستعناء عنها وقد يفصل الاستعناء عنها إذا جشمه الطلب فوق ما يطيق. وكان الرجل ناهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستقر مطمئنه ولا يثير المخاوف عين حوله

ولعه كان ناهيا عظيم الدهاء، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه إليها كان أعظم من دهائه فابكتفت عاينه على كره منه وحيل بينه وبين يروع تلك الغاية من كل طريق ينافس فيه المنافسون.

ومما لا ريب فيه أن لرجس لم يكن من العقلة بحيث يصدق كثر خرافة من الخرافات التي كان يديعها ويتولى بشرها و مدعوه إليها ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ له خبرا واحدا من على أنه كان من السمو الفكري بحيث يسلم من جميع الخرافات وينطلق ما وراءها من الحقائق ولا سيما إذا كان التصديق هو طريقه إلى اسلطان والعلية وههر، الحصوم والانصار على النظراء فمن مألوف النفوس - أو من مألوف هذه النفوس خاصة - أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز إيمانها بمطمعها، كما يفعل المحب الذي يؤديه الشك ويؤديه العلم بعيوب محبوبه فيروص طبعه على اليقين وتحميم العيوب لأنها أريح له وأعوى به على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيوب.

وهذه الطبيعة المعهودة في أمثاله دون غيرها هي التي تفسر لنا أفعالا شتى يبذلونها خادعا مخدوعا في وقت واحد، فهو حصيف لا شك في حصافته، ولكن كيف يقع الحصيف في مثل ذلك السخف الذي لج به حتى يمسول له البطش بأقرب الناس إليه ومنهم ولده أو ولدها؟

يقع الحصيف في مثل ذلك السخف، وعيما هو اسخف منه، إذا كان مغبوط على أمره مضطرا إلى يسوع دعوته بعقيدته بجمالها في نظره وتيسرها ثوب الواجب الذي لا يحيد عنه ولا هواه فيه

* * *

أما إن حسن بن الصباح كان مغلوبا على أمره في طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تحيق العيش بغير سلسل من أو يعير اسعى إلى السلطان، فبده ما انصر بأحد قط إلا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وعطيمته، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وعطيمته لم تكشف منه دعة الطمع في كل علاقة وفي كل مكان

سمع في شبابه عن الشيخ موفق البسايورى أن تلاميذه جميعا يرتفعون ببركة تعليجه في مراتب الدولة، وكان ابن الصباح شيعيا ومدرسة الشيخ لموفق معهد السنة في بسايور، فلم يمهه ذلك أن يحتارها لتعلم عليها على أمل في انهاء والسيطان

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب «جامع التواريخ» وفي روايته عن صباح يقول: إن سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمذ معه في مدرسة بسايور فتعاهدا على المعونة إيا وصل أحدهما إلى منصب من مناصب الرئاسة، وأن ابن الصباح قد استنحى الوزير وعده فخير بين ولاية الري وولاية أصغهان، وكان ابن الصباح عالى المهمة فلم يفع بإحدى هاتين الولايتين، فاستبقاه نظام الملك في الديوان عسى أن يرقى فيه إلى مكانة أكبر من مكانة الولاة

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة، ولكنها على كل حال تصح منها شيء واحد. وهو علم المؤرخين للرجل - من محبيه فضلاً عن مبغضيه - أنه كان بعيد المناسخ من صباه.

وحدث، وهو في الديوان أنه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك هو عهد الملك بإحصائه قبل أن ينجزه الوزير، فاحتدل هذا على إحباط سعيه وأوصد عليه الباب حتى أراد أن يندفع منه إلى منصبه فوق كتفيه

وقدس في تعليل سفره إلى مصر بلقاء الخليفة الفاطمي إنه ستوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره إلى حاش عله بأعوار الدعوة، فأراد المريد من العلم بالشحوص إلى دار الحكمة في القاهرة، لعله يستوفى هناك علوم الإسماعيليين التي غابت عن دعاة العراق.

ومن الواضح أن الشحوص إلى عاصمه اخلافة الفاطمية هو انمعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع في مناصب الدولة فليس له مطمع في بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود، ولم يبق له إلا أمل واحد لا تنصرف عنه، وهو بلوغ المنصب المرموق في عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكمة ' كبير المطامع يتولى قيادته والوزارة ولا يقع بهما دون الإمارة والملك لو تمهد إليهما السبيل، ومن ثم روج بنته للأمير المستعلى، ابن الحليف، وأكره الخليفة أورين له أن يختار المستعلى لولاية عهده، أملاً في الملك إن استطاعه لنفسه أو في توطيد الملك لقريته من بعده

(١) الشكمة الحديثة المعترضة هي قم الفرس - وقوة القلب

ذلك هو أمير الجيوش بدر الحمالي أدى سبقت الإسارة إليه، وذلك هو الحد
بدي تحضر ابن الصباح بمصاوله ومدورته بعد وصوله إلى القاهرة، واختار
نزار لولاية العهد واحتار جهده أن يحور بين المستعلى وعرش الخلافة،
واسمد من أساس المذهب الإسماعيلي كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافه
بعد أبيه، فرغم أنه هزل بين يدي الخليفة المستنصر فوكل إليه الخليفة أن يدعو
إليه وإلى ولي عهده بين الأمم الإسلامية قال «مسأته ومن ولي العهد» وأشار
إلى نزار »

تلك قصة تشبه قصة الولاية التي صارت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق
وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته وإسارها لأخيه موسى، من الإسماعيليين
يرفصون تبديل ولايه العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتدره عن البقاء

فلما أراد الحسن بن الصباح أن تثبت الولاية لنزار أقام لها أساساً كلاً أساس
الذي قامت عليه الدعوة الإسماعيلية من مبدئها وروى تلك انقصة عن الخليفة
المستنصر (والأرجح عند أساس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه إلى
لقائه، بل أمره بمنزل الكرامة في دار الصباغة، ثم أيقنه على أمر يتكرر بين
القريب والإقصاء) ويكن ابن الصباح قد طاب عليه الانتظار وأحسن الخطر من
أمير الجيوش فتح بحبائه من مصر، ولما يصدق بالبحاة، وراح بعد الإفلات
من الخطر يشئ له دعوة جديدة في المذهب الإسماعيلي، وهي الدعوة إلى
إمامة نزار

وراح الحسن يطوف في بلاد الشام والعراق وفارس ليشرح دعوته الجديدة حيث
يأمر الرصد والمطاردة، وبدوا أن حوافر النفس العلابة كانت في تلك الفترة على
أشد ما تكون غلبة عليه، حرجاً بما لقيه وضيقاً بالمطمع الذي يسارعه ولا يعلم
المخرج إليه، فقال يوماً لأحد أصدقائه في صعبان لو أن معي صديقين أركن
إليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم فطن به صديقه الحثون وأوصى
طباخه أن يتخير لصيغه ما نطق من الطعام وطاب غذاؤه، وأدرك الحسن أن
صديقه قد خامره الشك في عقده فتركه ومضى لسبيله.

والظاهر من مساعيه وحركته في هذا التصوف أنه كان يبحث عن أستاذه
القديم في الدعوة الإسماعيلية عبد المك بن عطاش، وكان ابن عطاش قد ولاه

الوكبة عنه ثم رين به السفر إلى انقاهره وأطلعه قبل سفره إليها على أسماء بعض البغاة المستترين الذين يلداهم في طريقه، ولكنه يعرف من أسناده مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التي تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها، فرب الحسن يعقب ابن عطاش حتى ضفر يلقائه وورث من اطمئناؤه إليه، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعها عليها

وواضح أن تجارب الحسن في رحلاته بين بلاد السلاجقة و خلفاء بني العباس وخلفاء الدولة الفاطمية قد أياسته من الوثبة إلى السلطان من طريق الولايات، ولكنها لم تجتسه من لوثة إلى السلطان حيث كان لاستقرار هواه في طبعه، فطمحت به همته إلى معقر من المعازل في أصراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمس إليه فيه يد ملك أو خبيقة وتخبر الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطليه من بلاد الديلم، فخرج إليها مع رهن من صحبه وأتباعه، وقيل إنه تلقى من مصر في هذه الأثناء ولذا لنزار بديعه بالإمامة وعمل باسمه ودعا إليه حتى انتهى به المطاف إلى قلعة يعيم فيها زعيم من العلويين، فاستصافه، فأمر له على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الانصار حوله، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير عطره صاحب القسعة واستولى عليها وعلى القلاع التي تجاورها وساعده على انتزاعها أنه خيل إلى أهل الأقليم أن مجموعة حروفها بحساب اجمر توافق تلك السنة الهجرية سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهي مجموعة حروف الألف واللام ولها والالف والميم والواو والياء التي تتألف منها كلمة الهاموت وأتم الحيلة في أدهان القوم أنه فسرها لهم بمعنى السر المعلم من (إله) بصم للام بمعنى السر في الفارسية و (اموهرت) بمعنى المعلوم أو الصنم، يمس من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة، والدين في مذهب الباطنية تعليم لا يسبقني عن الإمام في كل زمان

* * *

(١) ينطق اسم القلعة «الاموات» أو الموت ويفتح اللام.

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة العجيبة التي ترحى الأحاديث عندها بين الناس فيصدقونها، لأنهم يحبون الاستماع إلى المعجب والتحدث بالمعجب ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجب أن يعطروا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قبضة عجيبة أو كل تحفة مدرة.

من هذه الأعاجيب أن احس بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذة الطبيب ابن عطاش فسخره في بشر دعوته، وأنه توسل به لإقناع أتباعه بروية الحمة عاب لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش ثم يدخلهم إلى حديقة عمرت بمحالي الطرب التي يتعنى فيها الغناء وتتلعب فيها الرقصات ثم يرحبهم منها وهم في غيبوبة لخدرو ويوقع في وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم إلى جنة الفردوس وأنه ماهر على مرجعهم إليها حيث يشاء، وأنهم إذا ماتوا في طاعته ذاهبون يشهادة أعينهم إلى السماء.

قالوا: وإن هذا الإقناع أو هذا «الإيمان العياني» يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوراق والأمراء بين حاشيتهم وأحاديثهم فيهمجون عليهم ويقتاعونهم غير وحلي ولا بادمين، وإن كلمة «أساسين» Assasin التي أطلقت في العرب على قتلة الملوك والعظماء ترجع إلى كلمة الحشاشين أو الحسيين نسبة إلى الحسن بن الصباح، وقالوا: إن الفتى من أسباع شيخ الحبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير إليه الشيخ بإلقاء نفسه من حاقق مبلقى بنفسه ولا يتردد، وإن أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المفصول بالبقعة ويتكلم لعنه حتى لا يمبرره منهم، وأنه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها حهرة ولا يحتهد في الهرب من مكابها، وإن أمهات هؤلاء العدائين كن يرعدن إذا سمعن خبر العداء وبسكين إذا عاد الأبناء إليهن ولم يفلحوا في اغتيال أولئك الأعداء.

وظن الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه إلى عهد الرحالة البرتغسي، «ماركوبو»، الذي ساع في المشرق في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد، ولا يزال هذا التفسير الخرافي مقبولا في القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والعراء.

(١) مرجى رضى الرحمن للشيرة وأرجاه بعده يرفق. وفلان حجتى شهر بحصيلها

ومن سنبعد جداً أن يكون للجنة المرغومة أصل في قلعة حسر بن الصباح،
فإن التكذيب أرحح من التصديق في كل خط من الحيوط التي سجلت منها القصة
ذلك الشيخ الواهي المريب.

إن الحسن بن الصباح كان معروف بالصرامة والشدة على نفسه وعلى
أتباعه، وكان يتسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه، ولم يكن
من اليسير في تلك القلاع المنعزلة أن يحفى أمر الفين ومجالس الراقصات
والغناء منّا صوباً دون أن يطلع عليه المقربون إن لم يطلع عليه جيرة القلعة
أجمعون، وليس من المعروف عن مدخلى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه
في وقت واحد، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس وليس
من المعروف عن الحشيش أنه يهين صاحبه لمواقف الإقدام على المخاطر
والإصرار عليها شهوراً أو سنوات.

ومن المحقق أن شيخ الحبل لم يطلع أحدًا على سره، وأن أحدًا من المؤرخين لم
يشهد تلك الحبة بنفسه ولم يسمع رويتها من شاهد بعينه، ههنا من العسير أن
يقتنع مصدر هذا الخيال من روايات الرمن الذي شأت فيه وسرت منه إلى ما
بعده من أرمية القرون الوسطى؟

* * *

إن روايات هذا الخيال قد شأت بين الصنديق ومن تشأ بين المشاركة، وقد
كان الصليبيون في حاجة إلى تأويل شجاعة المسلمين وهم في عرقهم قوم
هالكون لا يؤمنون بالدين الصحيح، فحضر لهم وقالوا وكرروا إليهم يستميتون في
الجهاد، لأنهم موعودون بالجنة التي تحرى تحبها الأنهار وترقص فيها الحور
لحسن، إذا استحبوا الشهادة في سبيل الله

واسخرت الشجاعة من افتدائين هو الذي أخرجهم إلى سبب كذلك السبب
أو أعرب من ذلك السبب، وقد كان ماركوبولو في روايته يقول إن افتدائين
صدقوا شيخ الحبل كم كان المجاهدون من العرب يصدقون النبي عليه السلام
وكانه يقول إليهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون منهم في شجاعتهم
مخدوعون

إن القوم قد عحبوا كيف يطيع القناديلون شبحهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم فلم يتحילו لذلك سببا غير الحجة الموعودة، وعرفوا الحشيش، فالتمسوا فيه سر الجنة التي تروى في هذه الدنيا رأى العيان وقد جاء ذكر الحشيش في كلام مؤرخي المشرق وذكر بعضهم أن أساس من شيوخ الطرق كانوا يستريحونه ولا يحسبونه من المسكرات المحرمة، وذكر البصري مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين وعنى بهم طائفة الإسماعيليين، أما حبه «الموت» الموعودة فهي من مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت في كلام مؤرخ إسلامي قديم ولا أن أحداً من مؤرخي العرب أسندها إلى مصدر من المصادر الإسلامية. ولو كان بها مصدر من المشرق الإسلامي لكنت كتب الشرق ولى بابتدعها من كتب الأوروبيين.

وأول دلائل البطلان في هذه الخرافة أن وجه الغربة الذي دعاهم إلى اختراعها غير غريب، فإن البخوة انديفية كانت أقرب شيء إلى أتباع الأئمة في ذلك الزمن ولا تصلح رؤية الوجه عيبا لتفسير تلك البخوة في عجائز الغناء فضلاً عن العتيان المجريين للغناء فإذا كان ولتلك العتيان يستهيون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عتاء، فاعجب لأمهاتهم اللاني كن يفرحون بفقدن ويتحسرن لمجاتهن كيف ملكن حاشهن بعير تلك الآية التي راها أبناؤهن ربي العيان»

* * *

لقد كان الأمل في ظهور المهدي المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان في ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية، وكانت فنن العصر أشبه شيء بنفن آخر الرمان أو بأشراط الزمن الذي يصهر فيه المهدي المنتظر ليضلاً الأرض عدلاً كما ملب جوراً ويبحو بأشاعه ومصديقيه إلى حظيرة الخاد والسلام، وكان شبح الحب يتخير لتربية القناديلين قنيانا أشداء يتعرس فيهم العريمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم، ثم يأخذ في تربيتهم على المشقة والصاعة وهم دون الثانية عشرة وأكثرهم من أباء الحال في تلك الأطراف التي شأ أمناؤها على الفطرة وعلى استعداد للتصديق والإيمان

وكان الإيمان بالدعوة العلوية قد شاع في تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم في عداد وكانت لشيع

الحبر وردة من حديد تتسلط على أجهاده تسلط «المبوم الصغاطوسي» على العدرين عنده على التتويج، فلم يكن في طاعة هؤلاء وإقدامهم على الاستشهاد من عراية ولا من حاجة إلى رؤية الحنة بالعين، «بأني الحروب الصليبية فتلوه ما فتر من البخوة التي أدكأها الصراع بين الدول وانفرق والطوائف والخلفاء والسلطين فلا يحتاج الفتى العيخر للاستشهاد إلى باقع أو حافر، بل لعله يحتاج إلى الموازع والرقيد».

والمؤرخون الأوروبيون الذين كتبوا عن خداع القادة لآتباعهم في الجماعات السرية كثيرون منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه، ومنهم من يسرع إلى الاتهام ومنهم من يترث فيه همز الدين أحسن التفسير إيفانوف الروسي صاحب كتاب «مؤسس الإسماعيلية المزعوم» The Alleged Founder of Ismaelism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل «لأساتذة المريين» لدين بختاروت لمعلم الأمراء وتثقيفهم في العلوم وفقه الدين، وقد عم الدعاء بالخداع من عهد عبد الله بن عيمور وخص بالذكر أئمة «الموت» من «المهدي حسن بن الصباح ورشيد الدين سنار» وسائر هؤلاء الدعاة

فأما إن حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك ما لا ريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار، فهل يصدق القول عليه أنه هو يذرع ولا يمدح وأنه هو يسوق ولا يساق؟

* * *

الراحح عندما أن هذا «المهدي» لم يكن خلوا من لإيمان بدعونه على وجه من الوحوه، وأن عمله في الدعوه عمل جاء غير هارن وصامد غير متزدد ولا داعي للمثك في إيمانه بعمله وإن كان هناك شك كبير في إيمانه بكل ما يقول لسمعهه ومتبعهه

وما بالننا بتخليك خلوا من الإيمان منصرها كل لاصراف إلى استنليل والخداع؟ أليس من دواعي الإيمان أن يكون الإنسان مدفوعا إلى عمله غير هادر على سرکه؟ أليس من دواعي الإيمان أن يكون اعتقاد الإنسان في عمله خيرا من اعتقاده في أعمال الآخرين؟ أليس من دواعي الإيمان أن يقع نفسه برسالة هالحة وأن يستمد من عمله حجة تلك الرسالة؟

إن «التبويم الذهبي» معروف متواتر، وأنه لأقوى ما يكون حين تندفع إليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها، وبديعة لها عذر من أحوال الرمن ودواعيه وربما بدأت عقيدة ابن الصباح في رسالته سلبية قيل أن توسع في طويته بالإقناع الموجب وأصح أو وسطا بين الوصوح والعموص.

ومعنى بالرسالة السلبية أنه آمن إيماناً لا مثنوية فيه بفساد العصر وصلال ذوى السطان فيه، وأنه مهما يفعل في حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب.

وتقرر بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية إلى السيدة والسلطان فماذا يصنع بهذه الدفعة إن لم يعمل بها عملاً قوياً متصل بعزيمة والثبات؟

إما أن يستكين إلى سيادة غيره والموت أحب إلى أصحاب هذه النفوس العالبة المغبوية من استكانة الخصوع، وإما أن يمضي قدماً ولا بد له من مسوغ وبرهان - وليس أسرع إلى السريرة من المسوع ولبرهان حين يتجوان من الفرق في حج اليأس ولا تكسار وظلمات الفشل واليهوان.

وقد قال دعى الدعاة في ذلك العصر إن الناس كانوا بين رحلين، رجل لو قيل له إن هبلاً طار أو حملاً ناص لما قابله إلا بالقبول والتصديق «أو منحل للعفس يقول إنه حبه الله تعالى على عبادة، مبطل لجميع ما الناس فيه، مستحلف بأرصاد الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكائنها، لكوبها مفعمة للجاهلين ولجاما على رءوس المجرمين العجافين»



وهذه عقيدة قوم لا بعمدة في طائفتهم إلى طلب السيادة والسلطان وليس في سوينهم ما يثيرهم إلى الحركة، إذ أثروا السكون، فإذا كاتب هذه العقيدة في طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين ولا يرى في نفسه إلا أنه أهل للقيادة والإمامة، وأن الذين حولوه أهل للقمع والكنال ممن ليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة بتحقيق غاية على يديه، هي أصلح مما هم فيه، وأصلح مما يحققونه على أيدي سواه.

وقد سوغ أفلاطون في جمهوريته خداع الدهماء وخداع المقعنين بناسئين، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر إلى العريدين بالرموز والإشارات، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذاً بدعوة السادة، وليس في رصدها دعوة سرية عامة كالدعوة التي لفت حس من الصباح من رأسه إلى قدميه فلم لا يسوغ هذا العدم في قيادة الدهماء لحس من الصباح؟ وهو من البعيد أنه أطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين؟ إن القول باقتباس الباطنية من هذين الحكمين راجع متواتر، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن يتنصت نفسه لهداية ويسلم نفسه ورسالته إلى عناية الله يتوجه به حيث أراد.

* * *

إن المؤمنين الخالصين للإيمان يغير مواربة ولا مراجعة أندر من الدرة بين بني آدم وحواء وما من أحد آمن بعقيدة إلا عرف في بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين

وتسعون في كل مائة، إن لم يكن أكثر من ذلك، يؤمنون بالعقيدة إيمان الوقية أو إيمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة وإذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بانتسيم لعائد مسجود أو دليل مرشد، فأحرى بهذه القوة أن تقنع وتبسط يده على خصومه مستحقين لعفائه، وعلى أصحابه مستحقا منهم الطاعة والتسليم.

ثم يكن حس من الصباح خلوا من الإيمان بعمله فيما يرى، ولم يكن عسير عليه أن يركن إلى دعوة تغريه بها ضرورة العطرة، ويحصه عليها مساد الرص وسهولة المسوغ لخروج على المعسدين فيه، ولا يعز عليه أن يعترف بعلامة من علمه ابواصح أو من علمه الغامض وما يلتصع فيه من بريق يثبت عليه بالإنهام حيناً بعد حين، فما عاش الرجل بقية حياته غائباً عن صوابه ولا سالكا لكل وعيه، وبين هذا وذاك منزلة الغالب المغلوب والخذاع والمخدوع

استولى الحسن على قلعة «آلموت» في سنة ١٨٣ هجرية ومات في سنة ٥١٨ هجرية، فظل مالك لتلك القلعة بأسطى بعوده على ما حولها حمسا وثلاثين سنة، لعله كان خلالها أقوى رجل في الديار الإسلامية من مراكش إلى بخوم الصين.

وولى عهده، وتسمى بالمهدى وانتحل النبوة الووحية للانتساب إلى الإمام واستعان بتعدد المراجع في تعدد مايفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم «مؤيد».

ومات «المستنصر» الخليفة الفاطمي سنة ٤٨٧ للهجرة مساعداً ذلك لإسماعيل على أشجار المرحح الذي يروقه أن يدعيه، فهو حجة ومهدى وإمام كما يشاء

• • •

وقد اعتمد في توطيد سلطانه على ثلاث الحبة، ولعيلة، واعتدة الدخيلة فمن الحيلة أن السلطان السلجوقي ملكشاه سير إليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة الموت بسنتين، ولم يسكن من الحدد كما أوصاه وزير نظام الملك استخفاف بشأن القلعة وحاميتها، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفر الموحشة وطال على جنوده العهد يلهو العواصم والحواصر أمر الحسن بقافلة تحمل لخمور فيما تحمل من المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر، وما وقعت أيديهم على رفاق^(١) الحمر حتى أفرغوه في أجوافهم وانطلقوا يقصفون^(٢) ويهرحرون، فانقضت عليهم حامية القعة وأمعنت فيهم قتلاً وبهتاناً وشريد من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ إلى بصيحة وزيره في هذه المرة، فصيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنتها وبطت الحيلة فاعتمد الرجل على العيلة، وأرسل إلى الوزير فتى من فتيانه العدائيين فقتله فعاد الجيش الذي سيره الوزير إلى حيث استدعاه ملكشاه، لحاجته إليه في اتقاء الفتنة واتقاء العارة من المغول

وساعد الرجل مصادفات الحوادث فيموت ملكشاه ويرغم الأتباع والأشباع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحداً بعد واحد، ويتنبه الرجل إلى مواقع القرص فلا تفوته منها فائقة فبما نشبت الفتنة بين ولدي ملكشاه جعل همه أن يتصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظهر بأخيه، فيسلط على الجيش المنتصر

(١) رفاق القوم: جمع رفق (بكسر الراء): الجلد يتعد للشراب وغيره.

(٢) يقصفون: قصف القوم، أقاموا في الأكل والشرب والنهب.

سلاح العيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة ومن أساليبه في هذه الفتنة أن يترك المحاربين في شك من هو معهم ومن هو عديهم وقد يشيع عن أحد أعدائه في دولة الأمير أنه من الإسماعيليين «انصب حيين» المستترين، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيقرب إليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه

فلما آل العرش إلى السلطان مسجر بن ملكشاه. وكان من أقوى الملوك وأغنامهم في عصره، لم يجد بدا من مصالحة ابن الصباح وقيل في أسباب المصالحة إنه كان من أهمها شك السلطان في حاشيته وقواده وأحناذه، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس إليه وهو لا يعلم، فتعاقد مع ابن الصباح على المسألة وترك له جيدة الصرائب والإتاوات "في إقيمه" ويروى أنه وجد في طريقه لى حصار «الغوت» خيماً معروفاً في فراشه مكتوباً عليه إن الذي غرسه هنا قادر على أن يعتمد في صدرك وأنه سمع عن أمرء الحصون أنهم يصمرون العقيدة الباطنية ويحلون الطاعة للسلاجقة في انتظار الأمر من شيخ الجبر، فآثر المسألة على القتال

* * *

ولم يمار شيخ الحبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية بل لم يدال بسقوط الخلافة الفاطمية ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية، وهمه قبل كل شيء أن يكرر أنبأه خالصين لطاعته والثقة به في غير مشاركة ولا هواة، فانقسمت الدعوة الإسماعيلية على نفسها وأصبح لها في البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو إلى نزار ويدعى لمهدية لشيخ الحبل ويحارب اسعسكر الآخر من الإسماعيليين والثاني يدعو إلى المستحلى وأبناؤه. وبقيت منها اليوم طائفة لإسماعيليين المعروفين باسم البهرة، يقولون إن المهدي المنتصر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة «الامرء» الفاطمي وإنه يحضر موسم الحج في كل عام فمن رأى احتجاج جميعاً في موسم من مواسم الحج فقد راه

وحيرة المؤرخين والباحثين الفسائيين في حياة الرجل في السواب الأخيرة من مقدمه بقلعة أموت إنه لم يكذب عارقها بعد دخولها، ولم تكن له أسرة فيها

(١) الإتاوات الإتاوة المال الذي يؤخذ على الأرض العراقية

غير امرأته وولديه وهذا الرعيم «البطلى» الذى قيل عن مذهبه إنه دريعة إلى استهسحة لمحرّمات وبنهاك على اللذات قد اتفق للكاتبون عنه على رده واعتكافه وعرفه عن المباح من الأطياب فضلاً عن الحرام، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته إياه فى شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل رداً واحداً بل قتل ولديه الاثنين وهو فى شيخوخة لا مطمع له بعدها فى الدنيا، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الإنسان العجيب كله، وهى مسلكه فيل وعائنه على الخصوص

* * *

هل هو مجنون مطبق الجنون؟ إن المحنّون المصدق الجنون لا يستغرب منه قتل آبائه فى شباب ولا شيخوخة، وتروى بهذا عرابة القتل ولكنها تروى لتخلّفها غرابة أعصل وأدهى، وتلك هى قدرة امحسور المطبق الجنون على التدبير المحكم عما بعد عام، وقدرته على حفظ مكانه ومكائنه بين ورائه وأعوانه ومنهم الأذكياء والدهاة وفيهم الشجاعة والهمة والإقدام

هل له عقيدته يصبر فى سبيلها على الشظف والصك ويستبّيح من أجلها إراقة الدماء، دماء الأبناء كدماء الأعداء؟

إنه خلق العقيدة الزارية خلق ومن البعيد أن يخلق العقيدة وينخضع بها ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه ويستبّيح فى سبيلها ما استباح والذى يبطل الحيرة فى اعتقادها هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الإنسان العجيب.

ونبدأ فنقول: إننا ينبغي أن نستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره، ولو كانوا معظم الناس

فالتعريب فى طباع الناس تصرفهم من الحنّان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم، ولكن هل خلا الحمس البشرى من أحد يهون عندهم أحياناً فى جاس البوارع انقبوية التى بها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان؟ هل خلا الحمس البشرى من أحد نراهم بينت تستهويهم الشهوات الصغار فضلاً عن الشهوات الكبار فلا يمالون ما يصيب أباءهم من حراء تلك الشهوات؟

وهو عن البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين يملكون مائة بطى
على حياق الأبوّة؟

كلا ليس هذا بالبعيد على الإطلاق، بل هو رأب الطامحين من أمثاله إلى
السطرة، ودأب الذين يهون عليهم شطط العيش ولا يهون عليهم الخسوع والبقاء
فى زوايا الإهمال وقد يكون الولدان الذين أمر بقتلهم قد تآمروا عليه مع بعض
أعرافه المطلعين إلى مكانه كما جاء فى بعض الروايات، وقد يكون أحدهما هو
الذى تأمر عليه كما هو الأرجح ويكون طبعه بالآخر أنه لا يعسج ولا يؤمن على
مصير الدولة بعده وقد يكون بطشه بابيه فى سبيل رسالته هو المسوغ المعبر
أمام ضميره لإقدامه على التطش بالغرباء فى هذه السبيل.

* * *

فإذا كان الظن بحسبه المصنق حيرة وكان الظن بعقلته حيرة مثلها فأنهى
الضنون للحيرة أنه أطاع طبعه فى طلب العلية على لرعم منه، وأنه اتخذ من
فساد زمانه حجة على وحب رسالته وقداستها، وأنه راض نفسه على شذائذ
تلك الرسالة ليكون الشذائذ التى يضطبع بها حجة به على صدقه ومطاوعة
طبعه، وأنه كان عوصة لسورة القصب وموية الفتك فى أرماب طبعه ولكنها
سورات نوبات دون الحصون العطبى فى جميع الأحوال، وهذا كله جائز غير
مستغرب أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون لمطبق أو خادع لا عمر له ولا
عوايه من وراء عمله غير الخداع والضلليل، أو أنه صعب لا يدرك موضع الغصة
من سريره، وهو يتسلل بالإقناع إلى سرائر منات والانبوع ومنهم الأركاء
والإلياء والحصفاء..



السرية الباطنية

ولعل سيره شيخ الحبل في نفائضها لمعلومة هي أكرم السير للتعريف بمعنى السرية بباطنية أو السرية الإسماعيلية على لتخصيص، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخي تبعا للعمل الذي ينوطه الإمام بدعائه، لا تبعا للفكره أو لعقيدة اتى يحاصرون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى.

كانت السرية تشتد كلما خشي دعاة الإمام في بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعدوهم على شئبت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم وكانت تتراخي حتى لا سرية على الإطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤانسة لهم ولسياستهم وقد يعقدون لمحاسن ويحاصرون في الأندية العامة لإعلان آرائهم ويقدم معارضيتهم كلما اطمأن بهم المقام في ديارهم.

* * *

ومن لحائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة في الإمام حين يكون معظم الإمام وتقديسه لازمين لإقناع الداعية أو العدائي بالهجوم على الخصم ومواجهة المصاعب والأهوال في غير إسفاف على جهانه أو حذر من عاقبة أمر، ففي هذه الحالة يتصف الإمام بالقداسة التي توجب على المرید صاعته وتصمن به السجدة في هذه الدنيا أو في الدار الآخرة وكثيرا ما يستغنى الإمام عن المغالاة بقداسته في الأرمنة العصبية التي تنتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمن بافتقار الأوان الموعود وتوالي العلامات والأشراط التي تؤذن بظهور المهدي وانتصار زمرة على أعدائهم وأعدائه هذا شاع في النفوس هذا الأمل فلا حاجة للإمام إلى عقائد المبالغ والمغالاة في أمره، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأمر بدعوته جند مصدقون مطيعون

وإذا أردنا الموسع الذي يشمل جميع المذهب وينظم مذاهب السنة والشيعة جميعا ولا يخص الإسماعيلية أو النزارية وحدها فالحلاف على الإمامة هو محور

كل خلاف بين جميع المذاهب من حسب السنة أو من جانب الشيعة فكل ما عزز ضرورة الإمام الحى فهو من عقائد الشيعة وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بحديثى الرأى إلى محور الخلاف كله، فأيهما كن أقرب إلى ضرورة الإمام الحى فهو من مذهب الشيعة، بغير حاجة إلى ليحث الطوبى والاستقصاء انيحي

* * *

وفد لحص العرالى هذا الفارق فى كتاب المقتد من الصلال فقد «الصواب انه لابد من الاعتراف بالحاجة إلى معلم وأنه لابد أن يكون لمعلم معصوم، ولكن معصم المعصوم هو محمد ﷺ فبدا قائلوا هو ميت فنقول ومعلمكم عائب فهذا قالوا معلما قد علم الدعاة ويثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم ين «ختلفوا أو أشكل عليهم مشكل، فنقول ومعلما قد علم الدعاة ويثهم وأكمل لمعلم، إذ قال الله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾. وبعد كمال التعليم لا يصير موت المعلم كما لا تصر عينته ببقى قولهم كيف يحكمون فيما لم يسمعه؟ أفعالهم ولم يسمعه، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظهره اختلاف؟ يقول بفعل ما فعله مع رسول الله صلى الله عليه وآله - لما بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن، إذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبلاجهاد عند عدمه، ين كما يفعله دعائهم إذا عدو عن الإمام إلى أقاصى الشرق، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص فإن البصوم امتناحية لا تستوعب الوقائع غير المتناحية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع امسافات ويرجع يكون المستغنى قد مات أو مات الانتفاع بالرجوع، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام ليعرفه القبلة لعب وقت الصلاة فبدا أجبرت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن . ويقال إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران - فكذلك فى جميع المجتهدين»

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض مما كان منه أقرب إلى تعليم الإمام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين، وجميع

المقربين للإمامة على مذهبهم كالزيديين وهذا هو الذي يؤيد أن مرجع لسرية كله هو الرأي في الإمامة لا عقد مستورة أو خلائق مضاهية لأدب الديون أو العرف بين المستعين وغير المستعين.

* * *

خذ لذلك مثلاً على بدء الصيام، فإن رؤيته الهلال فيه كافية على مذهب السنيين، ولكن هذا الرأي يغني عن إعلان الامام للصيام فلا يأخذ به الإماميون، بل يقولون إن المسممين كانوا في حياة النبي - عليه السلام - يصومون حين يصوم فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته»، ولم يكلهم إلى الرؤية قيل ذلك وهو مفيد معهم يصوم فيصومون

ووجود علم مستور يتعلمه أساس من الامام دون غيره هو العقيدة التي لا محيد عنها لمن يقولون بالإمامية وإنما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين، فقد يكون نعم مستور هو تأويل القرآن، وإجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل صائب ولا يجوز التردد في طاعنها بوقفا على فهمها، فإنها لو كشفت في بعض الأمانة لحاق الضرر بمن تشعلهم تلك السياسة أجمعين

وقد فسراى الصباح اسم قلعته بمعنى السر اعلم، فهي مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستعينون عن تعليمها بالايتماد عنها وقد ترخص بعض الإماميين في أمر لعصمة الواجبة للإمام، فأباح بعضهم نقد الإمام كما فعل حسن بن الصباح في نقد الخليفة المستنصر، بل كما فعل داعي دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازي الذي سبغت الإشارة إليه، ولكنهم يقولون أن الامام نصب وهو مختار ويجرى مع الخطأ وهو مكره، ولا سيما في اختياره لولي عهده وصاحب الإمامة من بعده، فإن من اختاره صانعاً فهو الصواب المصاح

* * *

لقد صاحبنا منشئ «الإسماعيلية الجديدة» من عهد نروزه في ميدان الدعوة الفاطمية، ولم يبد، بسيرته من نشأته الأولى، لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره في أوائس نشأته فما مر خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه

وبطلته، فهو ينتسب إلى البص ويذكر من سبته أنه الحسن بن علي بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميري، ويذكرو دعواه يقولون إنه قرؤى من خراسان وصهم من بقول إن أباه كان يعمل فى الصيدغة، صناعة الصبغة على شواطئ بحر العجم.

* * *

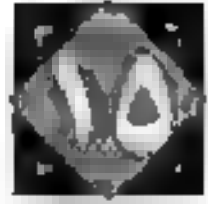
والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته، وأن دعوته لم تغلج فى بلاد اليمن، بل أفلحت عندها دعوة الطبيب ابن الأمر التى كانت تناقص الدعوة إلى برار أمام الحسن المختار، وقد أوصى الحسن بعده لرحل فارسى عريب عنه لا تربطه به سبة ويطلبه من أقربائه المستورين إن صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن

ورويت عن صباح تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور، ولكنها قصه يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ هـ نهجرة) فإذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا إذن أكثر من مائة سنة ولو قدريا انهما أصغر من نظام الملك بنصع سنون، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف

وأب كان الخبر الذى ثبت من اختيار صباح فهو لا يعير شيئا من ملامح «الشخصية» التى برز بها فى التاريخ، وهى شخصية المعاصر صاحب الدعوة التى انقطعت عن حدودها واتصلت به ويعايناه ومراميه

وهذه بعد شخصية أثبت فى ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية، وعلى دعوتها تعاس الدعوات التى اقتربت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول

* * *



بُناة وهُدَامُون... وَمُهْدُومُونَ

بسبب قيام الدولة الفاطمية إلى جهود الدعاة الذين اجتثوا في المشرق والمغرب وافقنوا في تبليغ الدعوة سرًا وجهزًا إلى كل طائفة بالوسيلة التي تلائمها، ويغلو بعض المؤرخين في شأن هذه الجهود حتى بحلوا لمن يقرؤهم أن غير هذه الجهود لم يكن به في إقامة الدولة الفاطمية شأن دويان.

ولا شك في براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها في التمهيد لقيام الدولة، ولكن لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسعى إلى العvisية ولا يحسن. وأن فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويصرون قصبتههم وأن الدعوة لو انصرفت كلها إلى لخدمة و التمهيد ولم ينصرف شيء منها للإساءة والتفجير لما بلغت غايتها إن لم يكن حو العالم الإسلامي متهينًا لقبول نظام جديد والإعراض عن نظام قديم والواقع أن حو العالم الإسلامي قد نهى في القرن الثالث لقبول هذا التبدل في نظامه، وكان هذا التهيؤ من شقين شق ينكر النظام لقائم، وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه

وكابوا يسمون ذلك دالات النجوم، فيربطون بين مشيئة الإنسان ومشيئة الكون كله، ويسوح لهم حين يريدون التفسير أن التعبير كائن ولو لم يريدوه ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه

وتوجد الكلمة التي تحفظ حين تلفظ وتسمع القاس «إن الشمس ستشرق من مغربها» بههمس بها بعضهم إلى بعض، ويعجب السامع مما سمع فلا يساء

وقد كان علم النجوم قد استعاض في كل مكان، وليس أكثر من مقاربات انك التي يحسب المحموم أنها علامة العيب على الخير والأحداث، وطلاب التعبير هم المستبشرون دائما بتلك العلامات وهم الذين يركبون إليها ويترقبونها، ولا سيما حين يكون علم النجوم علما يحبه المحدودون ويمارسونه، ويبغضه المحافظون ومتشائمون به ولا يترقبون الخير من ورائه

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائده يحدح وحسب حين قال عن النجم
دع الدنبي في زماعه

أبى الرواية بل أبى النجوم وما
صاغوه من زخرف فيها ومن كذب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة
ما كان مقلبا أو غير مقلبا
وخوضوا الأرض من دهباء داهية
إذا بدا الكوكب الغربي ذو الدنبي

ولكنه في الواقع كان ينظر على أوائل القرن هجرتي إلى الوجهتين
المتقابلتين وجهة لرصين عن سيئات النجوم ووجهة المتبرسين بها
ومارلت الوجهتان تسرجان حتى شهدت نهاية القرن عية التفاؤل وعية
التشاؤم بعلامات النجوم

قال صاحب زهر المعاني «وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدي
بالله ويبشرون بدولته، ثم إن الصوفا والأصناد أيقنوا بذلك، وإن صاحب الرمان
تقدم للهِجرة إلى المغرب واسمى في كنفه حتى يكون أوّل ظهوره وظلوع نوره
وأن يكونه بالشمس الطالعة

وكان المهدي نفسه على علم بمراصد النجوم، فكان يتقاع بمعارناتها ويبسر
بها أتباعه، وهم يغبر هذه البشارة مصدقوه، فإذا علموا أن الكون كله يتأهب
«لظلوع اشمس من المغرب» فقد بلغ لتصديق عايه اليقين

وقد أثر عن حفيد موسى بكاطم - كما جاء في المعبري - أنه قال في سنة
اثنتين وخمسين ومائتين إ. الإمام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة
ويطم المعبري هذه النبوة فقال

ألا يا شيعنة الحق	دوى الإيمان والسير
ومن هم نصرة الله	على الخويف والزجر
فبعد الست والتس	عين قطع القول هي العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يعراون في أرواحهم سحور علامات
رونها إلى ما بعد نهضة القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع، فقد أبو طاهر
القرصطي،

أغرركم همى رجوعى إلى هجر
فعما قريب سوف يأتكم الخبر
إذا طلع المريح في أرض بابل
وقارنه المحيان، فالحذر الحذر
فمن يبيع أهل العراق رسالة
بأسى ابن المروء في الدو والحصر
أنا الداع للمهدي لا شك أنتى
أنا الصيغم الضمغام والحية الذكر

وقد نقدم أن الناس صنفوا بأبى اعتلاء المعري أنه من رصدة النجوم، فإذا يلح
برهان أن يترقب فيه الصرير أرواح لسماء فهو زمان يفعل فيه لعلامات الفلكية
فعنها، سواء أكان حب التعبير هو الذى يحق الأبصار وابصار بمسالك الكواكب،
أم كانت مسالك الكواكب هى التى تتحدث فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم إلى
العبث من بصير وصرير

وقد حوى ذلك كله أن السماء و لأرض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا
تتطلعان إلى شىء، وأن الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويسشاءون، وأخرى الناس
أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير

وحادث الدعوة العاصمية إلى قوم متبرمين أو قوم غير مكتربين لدفاع عن
النظام القائم أو دفع البطم الجديد.

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يعصونها أو ينكرون حقها ومن
كان منهم لا ينكر حق الحلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم، معتقد
أن أهل البيت المفضلين خير من أهل البيت الموليين، أو أهل البيت الذين توبت عنهم
الولاية عجزاً وسفهاً فليس لهم منها غير الأسماء

* * *

وكان بطش العباسيين بأبش على من أسبب الكراهة لأصحاب الحكم وأسبب العصف على ملأيه فكان مع لعايسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويعقتون أصحاب العروش في بغداد ولولا عامس من عمال بني العباس في الرملة لأعتقل المهدي وقتل قبل أن يصل إلى المغرب حيث أقام الدولة يقول جعفر الحاجب في سيرته «وصلنا إلى الرملة فزلت بها عس عاملها وكان مأخوذاً عليه فلم يدر من اسرور برزية مولانا المهدي كيف يخدمه ورفع المهدي فوق رأسه وقبل يديه ورجليه»

ثم قال إن الخحاب وصل من دمشق إلى الرملة يصف له المهدي وأمره بالبحث عنه والمهدي في داره فسبك الرجل على رجلي المهدي يقبلهما ويبيكي مطمأنه المهدي قائلاً «طلب نفساً وقر عيناً، فالذي نفسي بيده لا وصلوا إلى أندلس ولنملكن أنا وولدي نواصي^(١) بني العباس»

وتبين غير مرة أن الحاديين الإسماعيليين كانوا أسرع إلى تبليغ المهدي وأعونه من السجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجريين على عتقاله وتسليمه واستخدم الحمام الزاجر في تبليغ الرسائل إلى المهدي وهو في طريقه كما جاء في روايات مختلفة، فإن صح هذا فهو دليل على ولاء عجب وإيمان برسالة المهدي على طول طريقه من الشام إلى المغرب، وإن لم يصح فقد صح ما هو أعرب منه وهو نجاة المهدي من عشرات الولاة واعمال في الشام ومصر والمغرب، بل بحاقه بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره إلى المغرب الأقصى

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل في باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية، لا تعترف لحلفاء بعدد من بني العباس بعير الدعاء على المنبر في يوم الجمعة، فقد روى عن كافر الإخشيدى أن الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه وقد سقط منه فاستعظم كافر هذا التواضع منه زمان على يده يقبلها وهو يقول «تعت إني نفسي، بعد أن ناولني ود رسول الله ﷺ سوطي غاية يتشرف لها»

(١) مواصي جمع تصفية، وهي مميت الشعر في مقدمة الرأس

هذه هي أشراط الساعة وعلامات الزمان التي وافتها دعوة الدعاة الفاضلين على قدر، ولو لم تقتصر دعوة الساعة بهذه الأشراف التي تجتمع من فعل الحوادث التاريخية وانبعاث النفوس لما يمكن الدعاة وحدهم من إقامة الدولة ولا تمكين من الإقناع وهو أهم أعمال الدعاة

* * *

ويتابع الأمر إلى عاينته فنقول إن لدعوة والحوادث التاريخية والمواعث النفسية كلها كانت خبيثة أن تذهب سدى بعير تنجبه لو لم يقيض للدولة بناء وموظفون من أصحاب السطائر فيها، يأخذون برمام الأمور ويحسبون قيادتها على نهجها القويم إلى أن تثبت سوائم الملك وتصمد الهيبة لحديدة لعواشي الرمن وهي بعد التأسيس عرصة لطوارئ الهدم والتوهين

وقد جرب العادة في كل دولة حديده أن يكون بها مؤسس وموظف مؤسس هو رأس الأسرة وموظف هو خلف له يتناول منه الملك ولم يستقر قراره فيمنعه أن يهز قبل أن يبلغ التمام، ثم يتمه ويتركه لمن يأتي بعده بناة أو مسترسيين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون

ولم تكن دولة البطميين شذوذاً من هذه القاعدة، فأسسها المهدي عبيد الله ووطدها المعز لدين الله، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التي ينبغي إيمان الدول وموظفي العهود، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودراعي الزمن دون أن يتاح للدولة هذان الياسان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس

اتصف عبيد الله بقوة أبدية وجمال السمات والهيبة كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الحاش، وعرف بالحزم وأصالة الرأي وشدة المراس واستعصاء بمقاد على المكابرة والعباء، واجتمع له حسن التصريف، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغي أن يكون، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسساً قليل النظراء

قيل في قوة بنيته «أنه كان بقوة عشرة رجاله

ولمست هذه القوة سائرة هي أيقاء على من السيدة الزهراء ومن غيرها، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه جلد لأرض بمصارع الروم لدى جاء إلى دمشق

يتحدى الأقوياء في بلاد المسلمين كما تحداهم في بلادهم ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس، فخير عن يحيى بن عمر الملقب بالتهيد أنه «كان له عمود حديد ثقيـل يكون معه في منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشده فيلوي العمود في عنقه فلا يقدر أحد أن يحلـه عنه حتى يحلـه بيده»

وليس قوة البنية شرطاً في أصحاب العروش، ولكن مؤسس الدولة يحتاج إليها إذا وجدت عنه الرحمة أحياناً من مكان إلى مكان فحأه وعلى غير استعداد ووجد عليه أن يصبر على متاع الاستخفاء ومتاع الحاجة وأن يصارع المطارد، ويسبق المتعقب ويمرر للقتال ولا يراى على أهبطه لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المشفقين عنه، فإبدا مصدى لهذا ولم يردى ضلـاعة الأركان أو شدة أن يقطع بالمسعى دون غاية الطريق

أسعفته هذه النية، لوتنقه في مارقته وفي أيام سلطانه، وأسعفت معها مهابه يعو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يصبر صوته، فب كان أسيراً في المغرب الأقصى كان صاحب «سحلماسة» يكل بأعوانه ولا يجسر على محابته بما يسوءه، وكان يعمل في مغيبه ما لم يكن يحترئ على عمله وهو ناظر إليه

وقد تم له الحسعات في مازى لخرج باليقظة الجريئة والحيلة اتى لاتفارقها رباطة الحاش وعزه الكرامة فب خرج من الشام إلى مصر هرباً من خلفاء بغداد سيروا الأدلاء إلى كل بلد في الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرنون الدمة ممن يراه ولا يدل عليه، ويجعلون لمن يسمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء. واتفق أنه صلى الصبح يوماً في جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو بهم بالخروج من المسجد وصرت بيده على كم الإمام وقال له: «قد حصلت لى عشرة آلاف دينار»

* * *

ولو رجل غيره في مثل ذلك الموقف العصيب لسنخت به الأرض من العزخ، ولكنه التفت إلى لرجر غير مكترث وسأله كأنه خلوا الذهن من كل خبر وكيف ذلك؟ قال: لأنك أب الرجل المظبوط فصحك المهدى وعاد مع الرجل إلى المسجد وهو يقول له «عليك عهد الله وعليظ ميثاقه أنى إذا جمعت بينك وبين

الرجل الذي تطلبه كان لي عليك ولصديقي هذا خمسة آلاف ديناراً » ولعله تفوس في الرجل العفلة فأخذه إلى حافلة قد اجتمع الناس فيه، وأدخله من جانبها وراغ منه، وأجمع انية في تلك اللحظة على فراق مصر والميادير بالسير إلى المغرب.

وهي مسيره إلى المغرب تعقبه وإلى مصر وأدركه ونرد في وصفه فأطلقه ولاح عليه أنه يحدث نفسه بلحافه إذا تثبت من حقيقته فما عثم المهدي أن عاد بعد إطلاقه يبحث عن كلب من كلاب الصمد يتفق به إليه وكانت تربينه لاسه كما تقوى في مصطلح هذه الأسماء نربية رياضية فوقع في نفس الوالي أن رجلاً يعود بعد النحاة في طلب كلب لا يظن به أنه خائف على حياته وأنه خارج في طلب الخلافة وما لأصحابه «فيحكم الله أرسح أن تحموني على قتل هذا حتى أخذه فهو كان يطلب ما يعال، أو كان مريباً، لكان يطوى المراحل ويخفي نفسه ولا كان رجح في طلب كلب...»

وقد يكون الوالي أطلقه لما أخذ منه كما يقول عريب بن سعد في تاريخه، وأنه خشي من أصحابه أن يرقابوا فيه ويرفعوا أمره إلى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدي وركبه، فكان حكاية الكلب هذه حيلة لتصيل أولئك الأصحاب وصرهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالي إلى بعدد

ومن حزمه بعد مديعته باختلافة أنه نادر على الأثر إلى تحديد نظام الدعوة في المغرب وفي مصر وأبيض والعراق وخراسان، وحمله على هذا التحديد أن أمر الدعوة لم يكن محتتم في يديه أيام استتاره فهو في الدعوة بد أعوانهم بغير مراجعة المهدي في اختيارهم، ونعود هؤلاء الأعوان أن يسلقوا أوامرهم من الدعوة الذين نذبوهم وأخباروهم ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمومة على الخليفة الحديد ولا على الخلافة الناشئة، هذه حليق أن يجعله عالمة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء في الاستبداد به وعصيان حكمه فيقص نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعوة ولم يستتر أكبرهم داعي اليمن ابن حوشب - فعزله وهو الذي كان أستاذ دعائه في الأقاليم، وكان منهم عبد الله الشيعي الذي سبق المهدي إلى المغرب واستعدمه إليه بعد انتمهيد له وجمع القبائل على عهده وغدر رايه من الشيعي هذا وأخيه

العباس أبهف على تصل خفى برعاء القبائل وأبهما يستكثران على الخيفة أن يحصر السلطان في يديه، ونفى إلهه أبهما يأمران به ويبعثان الأمة مع رعاء القبائل على قتله، فأمر بقتلهما وأظهر الرضى عن غيرهما من من فيهم الطيور، فجعل يفرهم في المناصب الدانية كأنه يكافهم ويعتمد عليهم وهم في الواقع يعصهم عن مرطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة.

* * *

وأطلق دعائته لجدد ومن أنقى عليه من الأعدمين بحوسون خلال إنديار الإسلامية ليبشروا به ويخلو الأنصار حول أعدائه، فإطلق رسله إلى بلاد الأمويين بالأندلس وبلاد الأدرسة بالحرب، وشطرسه في مصر واليمن والعراق وخراسان وأخذ يبيد أرملة الثورات في كل إقليم من تلك الأقاليم واستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظلوا أنهم قسرون عليها وأن الأوان قد أن لحهر بها، ورأى هو بثبات نظره أن ثورة الأطراف قبل فتح مصر، أو قبل المسير إليها، تفريز بالثوار، وأن الثورة بعد فتح مصر تنمة مستغرة قد تأتي عتوا ومد تشب دفعة واحدة مع سقوط هيئة لدولة العباسية، فلا يعين الثوار بالخروج عنها في غير حذر ولا دم وقد صح تقديره بعد تسير الحملة على مصر وتحربة بموقف مرتين.

وإراح من المقابلة بين برامج المهدي أنه كان مقصور اليد في حملاته على مصر كان يوصى بالأنابة وانتريه حتى يفرع العمل في لتحديد وكسب الأنصار ثم بضرب انقدر صرية من صرماته التي تأتي على غير انظار صبرت خليفة بغداد ويستحكم لشعق بين قواده ووزرائه ويحنم اثاثون العرصة قبل تمام الأهبة، وتتوارد الكتب إلى المهدي بالحرص على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر إلى هذه الأحداث من بعيد، ولا يبيع من ثقته بحدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويسرك المعرب خبوا من الحدد مطعنة للمغيرين عليه ولامتقذين من بايعوه على دخل في ول عهده، فينفذ إلى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار، كاحمة التي عقد لواءها بلوعيم البربري حباسة ثم حملة تبعة الإخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل إلى الإسكندرية

* * *

أما الخطه التي بسو انه كان يوفرها وبخثارها فهي إرجاء الحملة على مصر إلى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشعباته، وبيتنى فيه المدينة لتي أرمع أن يتخذها حصنا به يحتوى به من المعيرين والمستعصين، وقد شعلته فتن المغرب ربما وأحرجته أيضا إخراج بعد مؤامرة عبدالله الشيعي وأخيه فقمع الفتنة قمعا عذيف لا رحمة فيه ولم يسكن إلى حفره بالمغرب إلا بعد الفرع من بناء المهديه حولي سنة خمس بعد ثلاثمائة، فقال يومئذ «لقد أمنت الآن على العاصميات».

ولم يفارقه طبيعة الحيطه واسماء في بعثه للمهديه فانتقى لها موقعا يحيط به البحر من جهات ثلاث، وأقام عليها سورا من العرب له بابين من الحديد رنة الواحد منهما ألف قنطر وبنى فيها الصهاريج وأخرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميرة الحاصية عنه شهور، وانتحى جانبها ثم بنى على مقربة من المهديه مدينة أخرى سماها باسم رويله، رحدى قبائل العرب التي توالى، وخصص رويله لذكاكير التحار ومخاربههم تحفيعا عن المهديه وعولا بين السكان ومرافقهم، وأقصى إلى خاضته بابه إنما فعل بك لأمن عائلتهم قال: «من أموالهم عدى وأهاليهم هداك فإن أرادوى بكيد وهم بروية كانت أموالهم عدى فلا يمكنهم ذلك وإن أرادوى بكيد وهم بالمهديه حذقوا على حرمهم هداك، ويبين بينهم سورا وابوابا فأما أمن منهم ليلا ونهارا، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلا وبين حرمهم نهارا».

بعد هذا استعد بالحملة الكبرى على مصر وعقد لراءها لولى عهده القائم فدخز الإسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم إلى الحيزة واحتل اعيوم ثم هم الوباء حيشه وعنتك بالألوف من حسده وحير بسنه وبين لعد من المغرب بعد نهزام أسطوله، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين

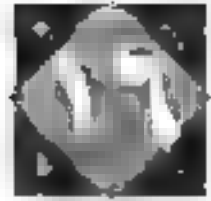
ثم كانت حملة ابنائه (سنة ٣٢١) وهو فى ومن الشيخوخة وقيل إنه مات من أن يحكم تدبيرها، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن حليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة، مخافه الانتفاض من ادنوا بلحكم الحسيد مهابة للمهدى ورهبة من نفته

* * *

مات لمهدي في سنة (٢٢٢ للهجرة) وولد في تاريخ مختلف عليه بين سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) ويوقع له بسلاعة وهو في نحو الأربعين، فكانت مدة حكمه أربعاً وعشرين سنة، ترك الدولة بعدها وقد استقر بغيابها ورسخت ركائزها رداً لها الدول التي كانت تدارع في المغرب وصقلية من الأعلى والأدارة ومن يؤرخهم من الأمويين بالأسس والعباسيين بسعداء، ولم يعرف عنه طول إقامته بالمغرب حكام أو غير حاكم به فرع لمبعم نفسه وعقل يوماً عن سياسة ملكه، وكانت له روحه واحدة وانقصت حياته وفي سيرته ربه بلسان الحار لا بلسان المقال على يد رحوه بالانتماء إلى أعداء بدين، بين أعداء الأديين وأنه تواضع سرا مع رس الفساد والعوايه لاستباحة المحرمات والإعرء بالفجر ولو لم يكن كدث لم أبقي بعده ملكاً مؤسساً بعاب عواذي الدهر من أول القرن الرابع إلى نهاية القرن السادس، أو يعالها بأشهره الباقية إلى اليوم

• • •

المعز لدين الله



واحتاحت لدولة الى انتوطيد بعد التأسيس فقدم بالقسط لأوفى من هذه المهمة ابن حفيده بملقب بالمعز لدين الله، وهو الحليفة الذي فتحت مصر وبسيت القاهرة في عهده وبقر مقر الملك إليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة حده الكبير، وقبر إليها كانت نبوءة مصر يحسبون لأوقات في مرحل الماربع بالأربعينات تولى الملك بعد المهدي ابنه «انقائم بأمر الله» ثم المنصور بأمر الله وكلاهما جدير بامانة ميراثه وإن لم يبلغ من العظمة مبلغ الموسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده، فعزز لفتح الأسطول واحتل الشواطئ الأبطالية حتى تعر حدود حماية لبلده من غارة الفراصنة، ومات فير انمكن من صد الخورج الذين أطمعهم بيه موت أبنه، ولولا اعتصامه بالمهديه لدان الدولة كلها في عشرة أعوام وارتقى ابنه المنصور إلى العرش فاحتاج الخوارج أمامه وأسر زعمهم القوي ابن كنداد وشتت جموعه ثم برز بين صد الأمويين الذين عاروا على مراكش في هذه الأثناء وبين صد الإفرنج الذين خيف منهم على شواطئه، فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليغف رحفهم ولا يحصى الطريق أمام أحدهم ومات مجهدا في سن (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرس ابنه «معد أبو تميم» المعز لدين الله لدى كن بحق صاحب دور انتوطيد بعد انتهاء دور التأسيس

* * *

قلنا في كتاب «عقربه خالد» «إن ولاية أبي عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد لأن الدول محتاج بعد دور الفتح إلى عصر الترتيب مع الأسف» وقد كان هذا شأن المعز في المغرب بعد حده فإنه كان يحس المعاملة إلى جانب البأس والانصرامة، وكانت شأته بشاة علم وفروسية أو بتأه علمه بالبرهان وخطية بالسيف والصولجان

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة ولمهدية محصوره، فكان يلقى دروس الفروسية علما وعملا ولم يفرغ من مرحلة الطروس

والأسفار، وتعم لغات لامم التي تنصير بالحلافة لفاطمة حميدة، فكان يحسن البربرية والروحية و لايطالبية والنوبية، ويتوسع في علوم العربية، وكان له شعر ومثر يصير فيهما إلى المجسبات لايتشارها على الألسنة و لأقلام في تلك الأيام ويروي عن أبيه من الجهر أنه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد أنها كلمة شيم ومهابة فحفظها و نف أن يسأل عن معناها ولم يدرك حتى أتقن علم تلك النحلة فبدأ بالكلمة من أرس سثنتمها وقد نف من جعلها فاصبح بأف من أن يواحه أحد بمثلها

وبويح له بالخلافة وهو في الرابعة والعشرين، فهمه أول الأمر أن يسوثق من مع المعامل التي معتصم بها الجارحون على لدوله، فصعد إلى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد سخل في طاعة أبائه فبايعوه، وأسرع إليه المخالفون يقتربون إليه لما أنسوه من مودته وكرمه.

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التي يتصف بها بنياء لدول أمه كان حريص على الانتفاع بالمحارب والعبر، وأنه كان محسن اصطباع الرحان، وأنه كان يحيد العراسة في أحوال الأمم واعتماد الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد لعزيمة عليه.

فم ينس هزيمة الأسطول في الحملة على مصر ولم يرب حتى أمر على شواطئه واستطاع بقوة البحرية أن يرد اساطيل الروم عن بلاديه وعن حرر البحر الخاصة لحكمه ثم حذب حفر الابار في الطريق إلى مصر ليأمن قطع الراد واماء عن حبشه

ومن اصصاعه للرجال أنه كان يستخلص الخدام والأعوان ولا يعار من تعظيمهم بين يديه، ين يأمر الشعراء أن يعظموا انقصائد في مدحهم ويأمر بهم أن يخاصبوهم بها في حصرتة وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصفي وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتافي جعفر بن فلاح لفتح الشام تحصى الوكيل جوهرًا عند تبليغ بشاره الفتح إلى المعز فلم يبدأ بإبلاغها إلى رئيسه «المباشرة» لمينعها من حاسبه إلى الخليفة، فعصب المعز على جعفر بن فلاح ورد ايه كتبه ليعيدها عن طريق جوهر إليه

ومن اصطباعه للرجال أنه كان يعضو عن الشجعان من أعدائه ويوقع في نفوسهم الأمن والطمأنينة بالحرية بعد التجربة حتى يمحضوه اطاعة خالصة بغير ريب ومن المشهور عنه أنه كان إذا بقي أحداً من مخالفيه تركه يصرف وهو يحسه من حربه ورأيه، ولعل هذا كان سبب الإشاعة التي تواترت بين الرهبان والقسوس يتقصرون وبقائه على البصراية، فإن الخبر الذي جاء في كتاب «الخريدة» الكنيسة في تاريخ الكنيسة، لأحد الرهبان يقول إنه اعترض الملك ويزهت وصاب فدفن في مقبره أبي سيفين ويقال في سر ذلك إنه تحدى البطرك إبراهيم أن يرحرح الحب من رحرحه على ملا من لأمراء وانكبراء وقادة أجند رؤساء الدواوين

والثابت من الأخبار يعنى عن هذه الإشاعات، فإن الخلعة المعروفة من قديمه جوهر ألا يتعرض لمخالف في الدين ولا في لذهب يع يعطى شعائر دينه أو مذهب، وطاع جوهر مولاه، فبى الدير الذى عرف بدير الخندق بدلاً من الدير الذى أصابه انهزم عند تمهيد الأرض لبدء القاهرة، وجاء اسمع فحدد كل ما تهدم من لصومع وبيع^١ وحدد كنيسة «مركورموس» التي تسعى بكنيسة أبي سيفين (لأن لقدس كان يرسم على صهوة حواء وفي يده سنان، وقيل إنه أمر بإقامة البناء على المحسوب الذى أثار الدهماء استنكاراً لبنائها وأبو ليثقيس في حفره الأساس حتى يقام عليه فلم ينفذ من مصيره إلا شقاعة البصرق له عند الخيفة

فهذا وما جين عليه العز من المجاملة وما تعود من الترحيب في مجلسه بامتياز في الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الإشاعة عن مدبه في مقبره الكنيسة ولعبه إشاعة بيتن بعد عصر المعر بعدة سنين يوم كانت هذه الإشاعة وما إليه مؤئل العراء في أيام الحليفة ابصاكم المحبول، لمن كان بصطهدهم من المخالفين وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة وأستينيين

* * *

ومن تعرضه في استطلاع أحوال الأمم واغتنام العرض أنه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ومشر فيها العيون والسعاة، وجاءه من مصر ورراء يستعجلونه ويستحثونه، وتلاحقت الأنباء بسوء الحال وشتداد الغلاء وقتك

(١) الخريدة العراء الجبهة للطويلة السكون، والعذراء

(٢) البوع، جمع بومة بكر لبدء كنيسة المسيحيين

الرياء، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور لاخلق بين ولاية الأمر ومنه في رواية المقريري أن صبية عرضت في مصر للسمع وطلب فيها ابناع ألف دينار «فحصر إليه في بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومنه فيها وابتاعته منه يستمائة دينار فبدأ هي ابنة الإخشيد محمد بن طعج وقد بعها خير هذه الصبية فلما رأتها شعفتها حبا فاشتريتها لتستمتع بها»

قال المقريري «فعاد الوكيل إلى المعرب وحدث المعرب بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الإخشيد مع الصبية إلى آخره فقال اسمع يا إخوانا! انهضوا لمصر فلن يحوز بيكم وبينها شيء، فإن القوم قد بلغ بهم البرق إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك منهم تخرج بنفسه وتشتري حاربه بتتمتع بها، وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب عيثرتهم، فانهضوا لمسيرنا إليهم»

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويندعوبوها ويشجعون الرعدة عليها ولكن لمع على خلاف المعهود من سياسة أسره حظر الاحتفال بالصوروز بعد وصوله إلى مصر منع للمبدل لدى شاع فيه على آخر أيام الإخشيديين، وتطهيراً بالأخلاق مما صلبها في تلك الأيام وأمرت منه «مع أنه نذير بزوال ملك بني الإخشيد»

وتقدم جوهر إلى مصر في سنة (٣٥٨ هجرية) فاسترط عليه وحوه الأمة رؤسائهم قبل لتسليم أن يؤمنهم على عقائدهم وما يوفونهم فكتب لهم عهد مائه الذي قال فيه «ذكرتم وحوها تنعستم ذكرها في كتاب أمانكم بذكرتها حابه لكم وتحميها لانعكسهم هم يكن في ذكرها معنى ولا في بشرها فائدة إذ كان الاسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهي إقامتكم على مذهبكم وأن تتركوا على ما كنتم عليه من داء العقروض في العلم والاحتجاج عليه في حوامعكم ومساعدكم وتبائتكم على ما كان عليه سيف الأمة من الصلابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ولكم على الله النام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد العناكد على الأيام وكرور الأعوام»

ووضع جوهر ساس القاهرة ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهره الفاطميين برصد النجوم وهي شهرة صحيحة - فقالوا انها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالا وعلفوا على الحبال أحراسا ليسمعها العمال

عند حلول الرصد المطلوب، ربن عربا وقع على الحبال والمربخ في الفلك فاهترت
الحبال واخذ العمال في وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهرة الذي نطقه
المجموعون على المربخ، لأنه كان في معتقد الأوسيين له الصروب.

* * *

هذه القصة «أولا» تروى عن بناء الإسكندرية

وهي «ثاميا» لا تفعل، لأن الهجوم ترصد ليلاً والعربان لا تصير بالليل ولو
طارب ليلاً أو بهراً لما كانت وقعة عرب على جبل كافيه لدق الأجراس على
جميع الأسوار، ولو كانت لأجراس تدق بهذه السهولة لدقت قين وقوع العرب على
الجبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هذه العرب ولو كان تحقيق
الرصد صعب على العلم لا على الرواية لأمكن أن يبدأ ابتساح في ساعة معلومة
بغير حاجة إلى الأجراس.

ثم من قال إنه عرب وهو مجهول وكيف عرفوه وانظروا أن امهندسين هم
الذين حركوا الحبال؟ ولم لا يكون طيرا آخر أه حمله من الصير؟

وقد رويت القصة وتضاف لها المؤرخون وتقريبها كثيرون، وفي التنبية إلى ما
عنها من الإحالة "عبره من يصدق سمعة التي بنقها الأقاويل من هذا القبيح
وانبع جوهر سنة تولته في تحطيط المدن ونسبيد العمائر، فبهم تعود أن
يبدأوا بتحديد المعالم والشارات يستشعر الناس ألفة العهد الحديدي بالعلم والسمع
شيثا شيئا قبل مطالبتهم بتعبير ما نوارثوه وتبتوا عليه فشرع جوهر في بناء
مسجد العاصمة الحديده (٣٥٩ لهجرة) وسمه الجامع الأهر على اسم الزهراء
في أرحح الأقوال وكأه أراد أن يستعنى بالعاصمة الحديده ومسجدها عن
القطائع عاصمة الطولوسيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون وعن
الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق، وكتباهما - أي انقطائع
والفسطاط - كانت عاصمه بلقصر في أوابها، واستحدثت لأمره بعد خراب القطائع
عاصمه خارج الفسطاط سموها العسكر ثم أنشأ الفاطميون انقاهره معقلاً
ومقاماً كدأبهم في تحديد المعالم والشارات على ما ألمعا إليه

* * *

(١) لإحالة أحوال الرجب - آتي به بعدال ونكلم به

ويعد فرع جوهر من بناء القصور التي أعدت لإقامة الحفء أبلغ المعرف قدم
إلى الإسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وحل لاسقبال رؤساء المدينة و لوافدين
إليها للمسلم عليه ثم خصهم قاتلاً إله لم يقصد إلى مصر طمعا في ردة ملك أو
مال وإنما قصد إليها لتأمين الأفس وحماية صريق الحج ودرء العارة عن سائر
الإسلام، وهو كلام بقول مثله كل فاتح ولكنه كان في يرمح لمعرضة تمليها
لضرورة عليه لأن تأمين الطريق إلى الحجار كان ضمام لاستقرار أدوية
الفاصة ودفع الشبهات عيب إذ كان لقراصة يعملون باسمها وكان أعداء
الدعوة انعطافية بشيعون عن القوم أنهم يقطعون صريق الحج عملاً بذهب
الإسماعيليين ويرغمون أن لإسماعيليين يسقطون لحج من الفرائض، فكان
تأمين طريق الحجار من قبل مصر والشام خطة تفصي بها مصلحة الحاكم
واسمحكم، ولم يثبت المعرف في القاهرة سنة واحدة حتى تعاقب خطب اسراع بيده
وبين لقراصة وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الحروح عليه ورحفت حموعهم إلى
مصر ومعها عباس البادية التي تطلب العسقة وبحشي من عواقب تأمين لصريق
فاستعد لهم للمر بعد الحيلة حقب لسماء ورسل إلى رعم لقبل لبديوة حسن
من الحواح انطاسي من يطمعه بالمال إننا تراجع ونحى عن أصحابه ووعده بمائة
ألف دينار فقبب الصفقة، وخرج المعرف للقبال على اتفاق بيده وبين ابن الحراج أن
يهرم هذا يحموعه عند التقاء الصقوف، وقد عدل وحمص معه أكياس الداسير
ونكها لم نحو من لداسير الصحاح غير منات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها
قطع الححاس المدهمة بخفيها الزعيم المخدوع حميع عن شركائه ودارب الدائر
على انقراصة في تلك اليوم فقبعوا من العيمة بالاياب وبيت المخوف والشكوك
بينهم وبين أصحابهم فم يرجعوا بعدد إلى عاراتهم على مصر

ولم يلبه عهد الموطن بانتهاء عهد المعرف (في سنة ٣٦٥ للهجرة) فإن بيده
العرير الذي تولى الملك بعده كان من كفة المنوك وكانت طاعته عالية على
المغرب ومصر وجزيرة العرب لا يخرح عليه خارجة فيها إلا عدل بقمعه وأعاد
الأمر في أرحاء الدولة إلى نصابها، ولكنه مات سنة ٣٨٦) وقد بدأت في أيامه
دسائس لقصور وسياسة الحريم، وتأثر بها وهناك دور الانحلال التي اختفت
إلى حين في إننا مضرة الدولة ودهوف ثم برز وتفرعت مع إديار الأمور
وتعاقب الصعفاء من الأمراء

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة هي شخص إنسان، لو لم يكن تاريخه خبرا يقيما لشك فيه المؤرخون أو حرموا بإكرامه، وكان مجموعة من النقائق والعرائف يكذب بعضها بعضا ولا يتصور العقر لأول وهلة أنها تصدر من إنسان واحد

ذلك هو الحاكم بأمر الله

كان يعمر ويخرب، وكان يلين ويقسو، وكان ينهي عن المراسم ثم يعرض منها ما يشبه العبدية، وكان يحيز شعائر أهل السنة وأهل البدعة ثم يمنعها ويبطش بمن يعصها. وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح، وكان يبدل النمل بالنهار والنهار بالليل، فمن فتح دكايا النهار حله ومن أغلق دكايا الليل رماه بالعصيان، وكان معتق العبيد والإماء ويفرق عليهم لهبات والأوراق ثم يستعيد الأحرار ويدينهم بما يألف منه الأرقاء. كان يخرج إلى عيران الجبل في الظلام ويحتجب في حجاب عصره ضد مشرق الشمس إلى المغرب، وكان يدعى علم العيب ويعاقب من يحرس ماله ومناعه كأنه يشك فيه، ثم يحاسب على الصغائر التي يعفوها المتعطلون.

قال ابن خلدون: «إن حاله كان مضطربا في الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة» وقار ابن خلكان: «إنه كان حوالة سمحا، خبيثا مكرا، رديء الاعتقاد، سفاكا بدماء قتل عددا من كبراء دولته صبورا وكان عحيب السيرة يخبر كل وقت أمورا وأحكاما يحسن الرعية عليها.»

ولم يذكر عن ملك في أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله، وبأمر الأمورين والأمراء

فمن مؤرخي القبط من يقول إنه مات على انصرانية ومنهم من يقول إنه كان يعبد المريخ ويتوهم أنه يراه ويتحدث إليه، ومن مؤرخي السنة من يقول إنه دعى الربوبية، ومن أتباعه اليوم من يعني الموت عنه ويرغم أنه صعد إلى السماء ليعود إلى الأرض في آخر الزمان، وأصيقت انتقاص على تاريخ حياته بتاريخ وفاته، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات.

وعى رعبا بعد هذا ان سيرة احاكم هي اعجب امير واوضح السير في وقت واحد.

هي أعجبها في موارد انصوص والاوراق، وهي اقلها عجباً في مبررات علم النفس الذي لم يفصل عن التاريخ قط في الكلام عن ربه كما انفصل عنه في الكلام على ملوك هذه الدولة

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل أنها حالة من حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التي تعرف بهوس الغموض *Mystic Hallucinos*

وأصحاب هذه الحالة مستعمرون موعود بالاسرار، يفرطون في التفاؤل والنشوة لإيمانهم بأبرمور واعتقادهم ان العيب يتحدث إليهم عن مكتوباته بتلميحات من الحوادث والمعاني لمروجه لتي تحمى في أصواتها ما يحم عليه ظاهرها للعارفين، وإذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التي تختلط بمرض الاضطهاد، فيقع في روع المريض ان الناس يضنون به اسر ويتعقبهم بالتحسس والاستطلاع، ويحتقم منهم بلوهم العرص والشبهة الكاذبة لأنه يصدق كل خير عنهم غير الخبر الصراح

ويسكن المهوسون بالأسرار إلى ماطر البطلام، ويستهووهم الليل بخفائمه، وترونها الوحدة في الخنوات.

وليس المصاب بهذه بحالة مجنونا داهل لحس عما حوله في جميع الأوقات، بل هي نوبات تعزیه ولا تمنعه أن يدع يداع العباقرة والمهويين في بنى الفنون

أما علة هذا المرض فأبصار فرويد يرجعون بها كعادتهم إلى صدمات الطفولة وأرمانها التي ترتبط بالحس على الخصوص، فتكمن في الوعي لتباطئ ونسك منه على غير علم من صاحبها حتى ينفجر دفعة واحدة أو رويداً رويداً في مقتبى المشاب.

وعير «الفرويديين» بعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر، فبتوهم المريض أنه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعون، ويحدث أحيات أن ينظر إلى شيء «ماثر فلا يراه ويصغى إلى الصوت الجين فلا

Mystic Hallucinos. (١)

يسمعه، وقد منعقون مع جماعه هرويد هي ترجوع بالدعة إلى صدمات الطفولة
وأزماتها دون أن يريصوها بالمشائى الحسية

هذه الاعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر ومن يكر
الحاكم بمعرب عن البيئه حتى تنسب فيها الافات إلى نفس الطفل الناشئ، فقد نش
الحاكم كما اسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياس الحريم وبركه أبوه وهو فى
الحادية عشرة من عمره وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم المملوك برحون
والقاصى محمد بن العمان وابحس بن عمار زعيم قبائل التبر من كتامة، وأول
هؤلاء برحون كان غارفاً فى دسائس القصور وسياسة الحريم

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحكم وهو فى سن الخطر لأنه لم يكن من
الطفولة بحيث يحفل ما حوله، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به
وبمك الوسائل إلى استطلاع كى فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من
خفايا الدسائس تعريه بالتطلع وبسوس له بالرسه والتساؤل فإذ كان مع
هد قد نشأ فى بيئة التبحر وكبر وهو يصغى إلى أخبار باطن والظاهر
وأسرار العيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة فلا عجب فى اسلافه تلك
الافه، فة نهوس بالأسوار أو ابولع بوسوس العموص ثم يحهر على بغيه
البقيه من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى
نفوس الأمراء الناشئين فيجمعون فى استغلالها ويبالغون فى تحسبها
ويوربونها، كما فعل الدرري والأخزم من حاسبة الحاكم المهربين إادقين إياهم
وسوسوا له بمذهب الحلول وخصيوة محاطية الأرياب، وأطلقت افه الاطلاع
بمصلل على آفة الاستطلاع المكبوت.

ومن يكر الحاكم من المصرفين فى الشهوات فتختل أعصابه من قبل الإسراف
ولم يكن يعاقب الخمر أو يستطيها بل كان يحرمها وينهى عنها، ولم يشرب
البييد إلا بالبحاح طيبه الذى حطر له أن يعذبه برخال لسرور إلى نفسه فى
محاليس انعباء مع بسير من الشراب، وإياها «عرض له كما قال الطبيب بحى
الأنطاكى فى تاريخه تشيخ من سوء مزاج يابس فى دماغه، وهو مزاج المرمى
الذى يحدث فى المالتحوليت، وأحدج فى مساواته منه إلى جلوسه فى شهر
البنفسج وترطيبه به، ومن كثرة سهوه أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيحان

الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره، وإن أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أسطاس به حذفه ستماله إلى أن تسامح في شرب النبيذ وسفاح الأعاني بعد حرره لها وصنع الكافه منها، فبصلحت أخلاقه وبرط مراح دماغه واستقام أمر جسمه ولما مات أبو يعقوب وعاد إلى الاصماع عن شرب النبيذ ومن سماع العباء رجع إلى ما كان عليه»

تلك هي خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس، ولا يصور لها فيها شيئاً من تلك الأعاجيب التي يستعربها مؤرخو القصور والأوراق، فإن طغلا بصاب بالتشيع وبحيط به في سن مرافقه دسائس القصور التي تحيط بالموت الصغار، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن استعجب وأسرار اليومين والغير، ثم يبلى من حوله بالمرتلين والمفتبين عن مواطن الصعف في نفسه الحائرة - عبر بدع أن يصب يهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك التقايس التي يساق فيها على الرغم منه أو التي يساق فيها محاراً، لأنه يهزم أنه يروى نفسه بالمكشف والمهجد، وحمل الناس عليها والعرب إلى الله بعقاب من ينحرف عنها، فتكشف له لحجب التي لا تراه مسألة دونه، ومنهم نفسه كلما خفي عليه مسانيرها بنقص في الرياضة وقصور في العبادة، فلا ير لدهره بين خشوع العابد ومحاولة البئس وقبح انحائر وإسار المستريح إلى الظنون ودعوى المصدق لما يلقي عليه من يستريح إليه

وسواء صبح أن بكبة الحاكم كانت إحدى حرائر «الحريم» ودسائس القصور أو كانت بكبة حريرة المرص وحده فقد صدقت دراسة المعرف في عاقبة انتكثرت من البروح والحواري وأحدث سياسة القصور تتشعب وتستشري حتى تناول كل شيء في الدولة والمجتمع، وكانت جرنرها آخر الأمر شرا قائما يده وشرا محسوباً عليه سائر الشرور لأنه كان حائلاً بين اتقائها ومنعها كما كان حائلاً دون صحتها بعد وقوعها

فمن حرائر دسائس لقصور بعدت قوى الحيش وشحرت^١ بينها بوازع الشفاق تبعاً لاختلاف الأحزاب في كل حريم، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من

(١) النهج القيام في الليل صلاة

(٢) تستشري تطفئ

(٣) شحرت مشايكت

السودان إلى حاسب القوة التي كانت لها من البربر والعرب، وأصبح حراس الأمن أو لمزعجين بالأميين ولأنفسهم وللعادة والحاكم.

ولم يمض غير حيل واحد على قيام الدولة في مصر حتى استلبت سياسة «البيروقراطية» أو تحكم الدواوين هوف ما انتيت به من سياسة الحرير

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء في سن الطفولة ورلايه خلفاء آخرين كالأطفال وإن يلغوا مبيع الرجال فقد ركبوا إلى نرف بمصور وقسعوا من الورراء بجلب المال إليهم كلما طلبوه، فقبض الجناة ورؤساء الدواوين والورراء على أزمة الدروة وعلى أزمة السياسة وطمعوا لأنفسهم وبسببهم هاستباحو المصادر وجمع الإتاوات من الرشوة والإرهاب عدا ما يجمعون من الضرائب في غير موعد

والمصائب لا تأتي فرادى كما يقال فمن المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من ابحارج قد اصاب الدولة بعصر فوق عجز حتى تعذر عليها التماسك والدفاع، فحق عليها القول

وقد سمي عصر الخبيثة «المستبصر» بالعصر الذهبي في الدولة الفاطمية مع ما كان يحسنه من القحط والمجاعة والوباء وما سمي عصره بهذا الاسم لأنه صبح فيه شيئا خلال ستين سنة قصاها على العرش منذ جلس عليه وهو في السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) إلى أن مات وهو يدلف^١ إلى السبعين، ولكنه كان عصرا كموسم الحصاد الذي ثمر فيه الثمرات والاشواك وبصبح فيه السنبل وما يحملها من الهشيم الذي ستدروه لرياح عما قريب أو نطعمه لمار دات الوقوف

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من ابناءة ولا من الهادمين، وإنف هو مهدوم تتداعى تحته قواعد امك، وقد يعارقها وهو غنبل.

وكن يسوأيوب قد أحدوا برمام السلطان في مصر قبيل انتهاء الدولة بفاطمية، فلما استقر الرأي في أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسي بدلا من الخليفة الفاطمي تملق بالعاقد، تحاوت المصادر بالدعاء الجديد وبم

(١) يدلف دلفه الشيخ، مشى وقارب المطر

يعلم به الخليفة الذي يحول عنه الدعاء لأنه كان يحود بنفسه في مرض الوفاة، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هي خاتمة الأهلين أجمع لخليفة الذي عمر إحدى وعشرين سنة، وأجل الدولة ابنى عمرت بين المغرب ومصر مائتي سنة وسبعين

وقد عزل أمرء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضو بغير عقب، وقال المقريري عن صلاح الدين والخليفة الأخير «وأضعف العاصد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره في ارسيا وأمر العاصد في نقصان ومنع العاصد من التصرف حتى تيبس للناس ما يريد من إرالة الدولة فلم يبق للعاصد سوى إقامة ذكره في الخطبة هد وصلاح الدين بوالى الطلب منه كل يوم لصنعه، فأبى على المال والخيل والرهيق وغير ذلك حتى لم يبق عبد العاصد غير عرس واحد فطلبه منه وأجأه إلى إرساله وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر».

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين، لأنها من قسوة الزمن وحياة الأسلاف على الأخلاف، أو هو قد حسبها في حساب المواردية بين المواقب والضعاف، وبين حكم المروء وحكم السياسة المشوذة^(١)، وبين القصء الذي يحربه صاحبه، والقصء الذي يحرق على قاصبه محربه وكأبه يعاقبه، فرحبت كفة الإقبال وهو د نم ارححان ودبت سولة الزور فشالت^(٢) كفتها في ميزان الرمان

• • •

(١) المشوذة، المكروهة

(٢) فشالت كفتها، شال للميزان، ارتفعت إحدى كفتيه على الأخرى



حَضَارَةٌ مَتَحَضَّرَةٌ

إذا استثنينا احصارات «المصريه الأولى» في أيام الفرعنه جدار أن يقال إن حصاره مصر في عهد الفاطميين لم يعرف لها بطير بعد الميلاد، ولا استثناء لعهد البطالسه، لأنه عهد عيب فيه الصبغة «الأحنية» على الصبغة البوطيه خلافا للحصاره في أيام الفاطميين، فإن صبغها امصريه كست عدليه على كل صبغه، ومن ثم لم تتكرر في وطن آخر على هذه الصوره وبقيت مصر على مذهبها الديني الذي كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها

وبصرف كلمه الحصاره هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافه او معيار الصبغة او مقياس الثروة او مقياس الشؤون الاجتماعيه

للم توحيد في مكتبه بعد مكتبة الإسكندرية خرائن للمكتب كاخزائن التي وجدت في العصر الشرقي وهاوت تقديره بين ستمائة ألف صلد ومليونين، حسب اختلاف التقدير على ما يظهر بين عدد الكتب وعدد النسخ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الاصلاح

وتماشت العصور في اقتناء الكتب النادرة، فكان في كل عصر مكتبة تحوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسانر العلوم

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين فيترجس ويطلع نعله، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها في الرفوف

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم، هذه للمعلمين وتلك لمتعلمين، وفتحت هبهما محاليس المدسرة والمحاضرة، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء، وتنقل المناظره أحياء إلى قصر الخليفة فيشترون فيها أو يشرف عليها ويأذن لكل ذي رأى أن يدلي برأيه فيها، وإن خالف به إجماع الآراء

وشاعب بين «عامية ثقافتهم التي ترصيههم من سلاح التاريخ المشهور أو المعلوم، فلم يكن مجلس من محاليس السمر العامة يخرج من القصاصيين

أو استعراء المسدين، يستعور حمزة أساس طربا من التاريخ الشعبي وأقصص
اشعبيه عدة مجالس الوعظ والتفقيه التي يفتح لفصل في المعاهد أو المساحد
من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء

وهي عهدهم أصلحت الدواب ونظمت وسائل ابرى وأعيدت مساحة الأرض
وفكروا في بناء الخزائن عند أسوان

وتقدمت الفنون والصناعات، وتنافس الفنانون والصناع في هندسة البناء،
وهي لنقش على الجدران والحفر على الحجارة الكريمة وشوهت رسوم على
المسبح تحاكي اللوحات الفنية هي دقة التصوير وجمال الألوان، ويجمع من
التصوير البارز والتصوير العائز غاية ما يبلغه في عصر من العصور، وصيغت
القماثيل من المعادن والجواهر فوشكت قبعة المعدن امرتحص أن تنضر قيمة
المعدن البعيس بفصل الصناعة والإتقان

وقد ألف الوصافون بها بالغوا في وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف
ليلة وليلة، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المفقودة من ذخائر
القصور في تلك الحضارة، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هي الأعجب والأبدع من
نسخة الخيال.

وكانت التجارة مددا للصناعة لا يتقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها
ويحتملها على التوسع والمزيد تأتي السفر من بحار المغرب وبحار الهند
والصين بالخصامات وتعود ببدائع المصنوعات، أو تأتي بدائع المصنوعات
وتعود بما هو أبداع وأعلى، دوايك في مواسم العام كله لا تنى ذاهية آتية على
مدى الصيف والشتاء

وتعددت امواسم والمحاقل الاجتماعية، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم
الأزمة العائرة وأصافت إليها، فبعد إلغاء ادوروز عند مقدم الخليفة العز إلى
القاهرة عادوا إلى الاحتفال به واصافوا إليه الاحتفال بالغطاس وخميس العهد
وأعياد الربيع، وأحصى من مواسم العام غير رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد
النبي ومولد الإمام ومولد آل البيت، وليالي الوفود وهي بيال من رجب وشعبان
يحتفل بها قبل نوافل الصيام.

(٩) مواسم جمع نافلة، وهي عرس ما لا يجب عمله، كالصيام في غير شهر الصيام.

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار، ولا سيما في شهر رمضان وليالي الأعياد، وعود الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسطة^(١) ويخرجوا إليه يحبوه ويتلقون منه التحية، وأصبح الواقفون إلى مصر يحسبونها أمة فرعت للموكب والمجفل والأسمار

ولم يكن قصارى ما في تلك المواكب أنها تظهر لهم وهراع تعطر فيها الأعراس وتسى في تكاليف لمعيشة، بل هي كانت في حقيقتها معار من لفتون والصاعات، يسير فيها أصحاب كل من صناعة على نظام معلوم، ويتقدم كل طائفة بقيدها وأساطلها يترسون بمفاخر موبهم وصناعاتهم ويعبدون عنها ويدلون عليها، ومن هذه المواكب ما يعى إلى اليوم في رقة رمصان وزفة حبر لبحر، وعن تلك المحافل ما بقي في طبعة رحب ونصف شعبان وعيرف من ليالي الذكرى للأمواد والزيرة للأحياء

لا جرم كاتب مصريان هذه الحضارة ملثقي الرواد والقصاص، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمصر يقصدون رحاب سوى السلطان في كل زمان ومكان، وأولهم السياح والشعراء

فمن رحابة أحبه العالم الإسلامي لم يخذ من مصر مقام أو مراراً في تلك الأيام، وما من قصر من قصور الملك في المشرق والمغرب عمر في ذلك العصر بمثل ما عمرت به القصور لفاطمية من الشعراء والأدباء

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإبحار لارحام العامة وكثرة العقال، وزادهم في الحراء لكيلا يفار به قصد في العطاء لا قصد في الثناء، فقال أحدهم ابن مروج، يخاطب الخليفة الصافظ

أمرتني أن تصوغ المدح مختصراً

لم لا أمرت ندي كفيك بختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المعارضة كعمارة اليمني الذي قال

مذاهبهم في الجود مذهب سمة

وإن خالقوني في اعتقاد التشيع

(١) الأسطة: جمع سباط، وهو ما يمسك لهدم عليه النعام

وهو الذي بضم يهضم نفسه على إنازهم وأوردها مورد الهلاك أملا في بصرتهم
واستعادة محدثهم فهو أحق الناس برثائهم، ومصيدته التي قين فيها إنازها أسع ما
تجتم في رثاء دوله هي أحق ما يودع به عمرائهم المسحور

لهي ولهف ينفي الآمال قاطبة

على فجيعتها في كرم الدول

قدمت مصر فأولتني ضلالتها

من النكارم ما أرى على الأمل

صررت بالقصر والأركان حاسيه

من الوفود وكنت قللة القبل

فلمن عنها بوجهي خوف منقذ

من الأعداء ووجهه الود لم يمل

سلك من اسقى دمعى غداة خلعت

رحابكم وعدت مهجورة السيل

بكي على ما قرأت من مكارمكم

حال الزمن صلبها وهي لم تحل

دار الضيافة كانت أسى وافدكم

والبيوم أوحش من رسم ومن طلل

وكسوة الناس في لفصلين قد درست

ورث منها جديد عقدهم وبلى

وموسم كان في يوم الحليج لكم

يدى تجميكم فيه على الحمل

وأول العمام والعبيد كان لكم

فيهن من ويل حود ليس بالوشل^٢

(١) بضم يهضم نفسه أهكها

(٢) الوشل، الماء القليل يتحطب من صخرة بقطر قليلا قليلا

والأرض تهتز في يوم القدير كما
يهتز ما بين قصريكم من الأسفل^١
والخيول تعرض في وشى وفي شية
مثل العرائس في حلى وفي حلل
وما حملتم قري الأضياف من سعة ألا
طباق إلا على الأكتاف والعجل
وما خصصتم ببر أهل مملتكم
حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذميين وللض
يف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز يتنيس الذي عظمتم
منه الصلات لأهل الأرض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخرة
وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله ما زلت عن حبي لهم أبدا
ما آخر الله لي في مدة الأجل
ولم يؤخر له في الأجل، فانقضى أجل الدولة في سنة سبع وستين وخمسمائة
وانقضى أجل شاعرها في سنة تسع وستين وخمسمائة.
﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتُرْغ الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتُعْزِ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلِّ
مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾

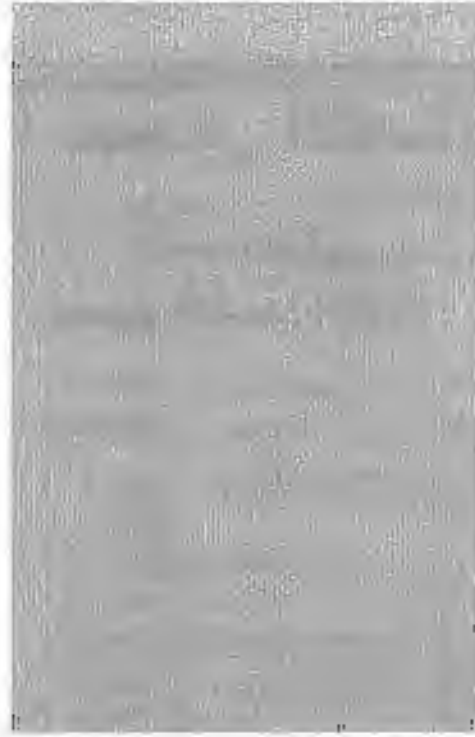
الفهرس

٢	تمهيد
٧	القسم الأول : فاطمة الزهراء
٩	أم الزمراء
١٧	نشأتها
٢١	زواجها
٢٣	بلاغتها
٢٩	في الحياة العامة
٤٥	وفاتها
٥١	شخصية الزهراء
٥٥	الذرية الفاطمية
٥٩	القسم الثاني : .. والفاطميون
٦١	الفاطميون
٦٧	النسب
٧٧	الباطنية
٨٩	الباطنية الفاطمية
١٠٧	حسن بن الصباح
١٢٢	السرية الباطنية
١٢٧	بناء وهدامون .. وهدومون
١٣٧	المعز لدين الله
١٤٩	حضارة متحضرة

مؤلفات عملاق الأدب العربي

الكاتب الكبير عباس محمود العقاد

- | | | |
|--------------------------------|---------------------------------|---------------------------------|
| ٥٦ - مع عاهل الجزيرة العربية | ٢٩ - الإسلام في القرون العشر | ١ - الله |
| ٥٧ - مواقف وتقضايا في الأدب | ٣٠ - ما يقال عن الإسلام | ٢ - إبراهيم أبو الأنبياء |
| والسياسة | ٣١ - حقائق الإسلام وأساطير | ٣ - مطلع النور أو ملوالم البهجة |
| ٥٨ - دراسات في العذائب الأدبية | خصوصه | المحزنة |
| والاجتماعية | ٣٢ - التفكير فريضة إسلامية | ٤ - عبقرية محمد ﷺ |
| ٥٩ - آراء في الأدب والفنون | ٣٣ - الفلسفة القرآنية | ٥ - عبقرية عمر |
| ٦٠ - بحوث في اللغة والأدب | ٣٤ - الديمقراطية في الإسلام | ٦ - عبقرية الإمام |
| ٦١ - خواطر في الفن والفن | ٣٥ - السر الحبيب في الحضارة | ٧ - عبقرية خالد |
| ٦٢ - دين وفن وفلسفة | الأوربية | ٨ - حياة المسيح |
| ٦٣ - فنون وشجون | ٣٦ - الثقافة العربية | ٩ - ذو القورين عثمان بن عفان |
| ٦٤ - قيم ومعايير | ٣٧ - اللغة الشاعرة | ١٠ - عمرو بن العاص |
| ٦٥ - الديوان في الأدب والنقد | ٣٨ - شعراء مصر وبغداد | ١١ - معاوية بن أبي سفيان |
| ٦٦ - عيد الفلم | ٣٩ - أشتات مجتمعات في اللغة | ١٢ - داعي السماء بلال بن رباح |
| ٦٧ - ربود رحدود | والأدب | ١٣ - أبو الشهداء الحسين بن علي |
| ٦٨ - ديوان بقطة الصباح | ٤٠ - حياة فلم | ١٤ - فاطمة الزهراء والفاطميون |
| ٦٩ - ديوان وضع نظيرية | ٤١ - خلاصة اليومية والشذور | ١٥ - هذه الشجرة |
| ٧٠ - ديوان أشتياح الأنصار | ٤٢ - مذهب ذوي العاهات | ١٦ - إبليس |
| ٧١ - ديوان وحى الأربعين | ٤٣ - لا تنبوية ولا استعصان | ١٧ - جحا للتساؤل المضحك |
| ٧٢ - ديوان هدية الكروان | ٤٤ - الشيوعية والإنسانية | ١٨ - أبو نولس |
| ٧٣ - ديوان عابر سجيل | ٤٥ - الصهيونية للعالمية | ١٩ - الإنسان في القرآن |
| ٧٤ - ديوان أعاصير حبيب | ٤٦ - أسوان | ٢٠ - المرأة في القرآن |
| ٧٥ - ديوان بعد الأعاصير | ٤٧ - أنا | ٢١ - عبقرية الإصلاح والتعليم |
| ٧٦ - عرائس وشياطين | ٤٨ - عبقرية الصديق | الإمام محمد عوده |
| ٧٧ - ديوان أشجان الليل | ٤٩ - الصليقة بنت الصديق | ٢٢ - سعد زغلول زعيم الثورة |
| ٧٨ - ديوان من رواوي | ٥٠ - الإسلام والحضارة الإنسانية | ٢٣ - روح عظيم المهاتما غاندي |
| ٧٩ - منظر في الميزان | ٥١ - مجمع الأحياء | ٢٤ - عبد الرحمن الكواكبي |
| ٨٠ - أقبول للشعوب | ٥٢ - الحكم المطلق | ٢٥ - رجعة أبي الغلام |
| ٨١ - القرن العشرون ما كان وما | ٥٣ - يوميات (الجزء الأول) | ٢٦ - رجال عرفتهم |
| سيكون | ٥٤ - يوميات (الجزء الثاني) | ٢٧ - سارة |
| ٨٢ - المنازية والأديان | ٥٥ - عالم السدود والقيود | ٢٨ - الإسلام دعوة عالمية |



احصل على أى من إصدارات شركة نهضة مصر (كتاب / CD)
وتمتع بأفضل الخدمات عبر موقع البيع، www.enahda.com

